نموذج تطبيقي

للعطاء الإسلامي للحضارة الإنسانية

في المجال التأريخي

كتاب ابن أبى اصيبعة (ت٦٦٨هـ)

"عيون الأنباء فى طبقات الأطباء"

نموذجًا

تمهيد:

يهتم هذا القسم من البحث بالتطور التاريخى لتعليم الطب فى مصر بصفة خاصة وفى تاريخ الحضارة الإسلامية بصفة عامة اعتماداً على كتاب ابن أبى أصيبعة (ت٦٦٨هـ) المسمى «**عيون الأنباء فى طبقات الأطباء**» الذى يكتسب أهميته من كون مؤلفه نفسه كان طبيباً وابن طبيب ومارس الطب تعلماً وتعليماً وعاش فى أزهى مراحل النهضة العلمية العربية، إذ عاش معظم عمره فى عهد الدولة الأيوبية وشهد السنوات العشر الأولى من الدولة المملوكية، وكان ذا صلات عريضة بأطباء عمره، وقد سجل فى كتابه كثيراً من مظاهر التقدم الذى وصل إليه هذا العلم.

وإيماناً بأن دراسة التراث العلمى العربى- من الوجهة التربوية- ما تزال بحاجة إلى مزيد من الدراسات، اهتم الباحث باستعراض مراحل تعليم الطب السبع التى تشبه مستويات دراسته حالياً من حيث الترتيب المنطقى للمعرفة العلمية، كما اهتم بتحليل طرق التدريس التى كانت مستخدمة ، واستعرض إلى جانب ذلك دور الترجمة من اللغات الأخرى فى تطوير التعليم الطبى.

حياة ابن أبى أصيبعة وعصره :

يرى الكاتب أن التمثيل للعطاء الإسلامي الحضاري في مجال التأريخ يقتضي النظر المفصل في واحد من أهم مؤلفات مؤرخي المسلمين ، وقد وقع اختيار الكاتب على ابن أبي أصيبعة مؤرخا للتعليم الطبي. ويمكن صوغ مشكلة البحث فى التساؤل الرئيسى التالى:

- إلى أى حد استطاع ابن أبى أصيبعة التأريخ لتعليم الطب خلال عرضه لتراجم الأطباء فى كتابه «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء»؟.

ويمكن أن تتفرغ عن هذا السؤال الأسئلة التالية :

١- من هو ابن أبى أصيبعة وما دوافعه لوضع هذا الكتاب؟.

٢- كيف أرخ ابن أبى أصيبعة لتعليم الطب فى البلاد المختلفة؟.

٣- ما دور الترجمة فى تطور تعليم الطب؟ ومن هم أشهر رجالها وما آثارها التربوية؟

٤- ما أهم مراحل دراسة الطب؟

٥- ما أهم طرق التدريس التى كانت مستخدمة فى تعليم الطب؟

الدراسات السابقة حول ابن أبي أصيبعة :

دراسة عبد الصبور شاهين [١] . هى الدراسة الوحيدة- فى حدود علم الباحث- التى تناولت شخصية ابن أبى أصبيعة. وأثره التربوى وشعره وتقع فى سبع عشرة صفحة. ومن قراءتها اتضح للباحث ما يلى :

١- أن الكاتب لم يتعد مقدمة «عيون الأنباء» الذى يقع فى ثمان وستين وسبعمائة (٧٦٨) صفحة من القطع الكبير إلا قليلا جدا.

٢- أنه وضع عنوانا هو «منهج ابن أبى أصيبعة» واكتفى تحت هذا العنوان بنقل فهرس الكتاب من مقدمة مؤلفه التى نقل منها جزءا أيضاً.

٣- أنه كرس ثلاث صفحات من صفحاته السبع عشرة لدراسة شعر ابن أبى أصيبعة مع عدم حاجة مقالته إلى هذا. فضلا عما أتخم به بقية الصفحات من استشهادات شعرية كانت تطول أحيانا.

٤- والأهم من هذا كله أنه تابع دائرة المعارف الإسلامية ونقل عنها نقلا دون أن يجشم نفسه مشقة البحث فكرر بذلك أخطاء المستشرقين الذين كتبوا الدائرة.

أولاً: حياة ابن أبى أصيبعة وعصرة :

إن المعلومات التاريخية المتاحة عن شخصية ابن أبى أصيبعة وحياته بالغة الندرة ولولا أنه كان يستطرد من حين لآخر فى ثنايا ترجماته لبعض معاصريه فيذكر بعض المعلومات عن نفسه، لولا ذلك لتعذر معرفة الكثير مما هو معروف عنه حاليا.

وربما كانت ندرة المعلومات حول حياته، هو السبب وراء إحجام الكثيرين ممن أرخوا له أو تناولوا شخصيته عن إبراز صورة متكاملة لتطورات حياته.

المصادر التى اعتمد نا عليها :

وفى سبيل رسم صورة أقرب ما تكون إلى واقع حياة ابن أبى أصيبعة فإن الباحث استقرأ المصادر التى أتيحت له وعكف عليها تحليلا ومقارنة ونقدا حتى استطاع رسم صورة تطورات حياته على النحو الذى سيرد بعد قليل مشيرا فى ثنايا ذلك إلى بعض ما وقع فيه من أرخوا له من أخطاء. وهذه المصادر هى : (مرتبة ترتيبا زمنيا من الأقدم إلى الأحدث):

١- كتابه موضوع الدراسة [٢] .

٢- وفيات الأعيان لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١هـ [٣].

٣- البداية والنهاية لابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤هـ [٤] .

٤- النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤هـ [٥] .

٥- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى المتوفى سنة ١٠٨٩هـ [٦] .

٦- دائرة المعارف الإسلامية لمجموعة من المستشرقين [٧] .

وتجدر الإشارة إلى أن الباحث اعتبر دائما أن ما ذكره ابن أبى أصيبعة عن نفسه فى ثنايا كتابه أكثر مصداقية مما رواه عنه من أرخوا له، كما اعتبر أن ابن خلكان أكثر مصداقية ممن جاءوا بعده لأنه كان معاصرا له كما أشار فى ثنايا كتابه الشهير «وفيات الأعيان».

عصر ابن أبى أصيبعة :

كانت مصر قد خضعت عمليا لسيطرة صلاح الدين الأيوبى منذ عام ٥٦٤ هـ على الرغم من وجود العاضد الخليفة الفاطمى المريض، إلا أن صلاح الدين أسقط الدعاء للخليفة الفاطمى ابتداء من سنة ٥٦٧هـ معلنا بذلك قيام الدولة الأيوبية فى مصر فقط. ثم عالج علاقاته بنور الدين زنكى حاكم الشام بالدبلوماسية لأن مصر كانت فى الواقع تابعة لمملكته كما كان صلاح الدين أحد قواده ، واستمر ذلك حتى وفاة نور الدين سنة ٥٦٩هـ وتنازع خلفاؤه مُلك الشام حتى ضعفوا مما هيأ لصلاح الدين الفرصة للسير إلى الشام وإخضاعه لنفوذه ، ثم استولى بعد ذلك على سواحل شمال أفريقية حتى مدينة قابس فى تونس، ووطد ملكه فى بلاد النوبة والسودان ، ثم دانت له اليمن والحجاز.

وتعد فترة حكم صلاح الدين من (٥٦٧- ٥٨٩هـ حيث توفى) هى العصر الذهبى للحكم الأيوبى وبوفاته تقطعت مملكته.

- فقد تولى ابنه الأفضل السلطنة العامة إلى جانب حكمه لدمشق وجنوب سورية.
- وتولى ابنه العزيز حكم مصر.

- وتولى ابنه الظاهر حكم حلب.
- وتولى أخوه العادل العراق.
- وتولى آخرون من أقاربه حماه، وحمص، وبعلبك، واليمن.

وفيما بعد توسع أخوه الملك العادل على حساب الآخرين ، فضم إلى ملكه ملك دمشق سنة٥٩٢هـ ثم مصر سنة ٥٩٦هـ وظلت حلب حتى سنة ٦٥٨هـ خاضعة لذرية صلاح الدين.

وبعد أن سقطت مصر فى يد الملك العادل ووفاة الملك الأفضل حاكم دمشق، عادت مصر لتصبح من جديد هى مقر الزعامة العامة للحكم الأيوبى حتى سنة ٦٤٨هـ حين بدأ المماليك الذين كانوا قد كثروا فى مصر وتوطدت مراكزهم، يتطلعون إلى الحكم ، وتم لهم ذلك بقتل توران شاه سنة ٦٤٨هـ ، وتولى شجرة الدر.

وباستيلاء المماليك على مصر انفصلت دمشق عنها وأصبحت تابعة لحاكم حلب حتى سنة ٦٥٨هـ حين اكتسحها المغول الذين تمكن المماليك من القضاء عليهم فى معركة عين جالوت. وبذلك عادت حلب ودمشق مرة ثانية تحت حكم الدولة المملوكية فى مصر.

وقد جرى حكم المماليك على ما كان يجرى عليهم حكم الأيوبيين من نظام التوريث فكان كل حاكم يوصى لوريثه الشرعى بالحكم من بعده غير أن الانقلابات المستمرة لم تكن تهيئ للوريث الفرصة للحكم ، خاصة إذا كان غلاما حدثا.

وقد طالت فترة حكم المماليك من عام ٥٤٨ هـ حتى عام ٩٢٢هـ وتقسم عادة إلى مرحلتين:

- مرحلة حكم المماليك البحرية من عام ٦٤٨- ٧٨٣هـ وحكم مصر خلالها خمسة وعشرون سلطانا معظمهم من الأتراك.
- مرحلة حكم المماليك البرجيه (٧٨٤- ٩٢٢هـ) حكم مصر خلالها أربعة وعشرون سلطانا معظمهم من الشراكسة.

وإذا كان ابن أبى أصيبعة قد عاش خلال المدة من٥٩٥ هـ إلى٦٦٨هـ تقريبا فإنه يكون قد عاصر الدولتين : الأيوبية الذابلة ، والمملوكية الناشئة، وشهد أوائل حكم الظاهر بيبرس.

الأوضاع الثقافية والتعليمية: (*)

ورث الأيوبيون النهضة العلمية عن أسلافهم الفاطميين الذين بنوا الجامع الأزهر وبنوا بجواره مساكن للفقهاء لأسباب دينية تتعلق بالدعوة لمذهبهم الشيعى.

ويرى سعيد إسماعيل أن انتشار المدارس فى عهد الأيوبيين- بالرغم من اتهامهم بالتوسع فيها لنشر مذهبهم السنى وتقويض المذهب الشيعى- كان ذا دلالة واضحة على مدى الازدهار الفكرى والثقافى العام.

فقد اشتهر الحكام الأيوبيون بأنهم هم أنفسهم كانوا علماء وحريصين على أن يكون لكل منهم مجلس علم وأدب وكان منهم الشعراء والمتبحرون فى الفقه والبلاغة والحديث.

وقد بدأت النهضة التعليمية على يدى صلاح الدين الأيوبى الذى أنشأ مدرستين فى عهد الخليفة العاض الفاطمى ، ولما استتب له الأمر أنشأ ثلاثا أخر ، فصار عدد المدارس التى أنشأها صلاح الدين خمس مدارس.

وقد حاكى سلاطين الأيوبيين- ومن بعدهم سلاطين المماليك- صلاح الدين فى بناء المدارس. ولا يخفى علينا أن المدارس كانت تدرس فيها العلوم الدينية لذلك

قصد السلاطين بتأسيسها التقرب إلى الله وكسب الثواب. ومن أهم هذه المدارس المدرسة الكاملية التى أنشأها السلطان الكامل سنة ٦٢١هـ (١٢٢٤م)، والمدرسة الصالحية التى بناها الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٩هـ (١٢٤١م). وكانت هذه المدرسة الأخيرة أول مدرسة تجمع بين مذاهب السنة الأربعة.

وكان يقوم بالتدريس فى المدرسة مدرس أو أكثر يختار من مشايخ علماء عصره وأوسعهم علما، وأبعدهم صيتا لأنه على أساس مكانته وشهرته تتوقف سمعة المدرسة وأهميتها. ويساعد المدرس عادة معيد، وظيفته أن يعيد على الطلبة ما ألقاه عليهم المدرس فهو أكبر منهم درجة، ويجلس معهم ليستمع إلى ما يعطيه المدرس، وبعد ذلك يرجع إلى الطلاب لشرح ما قد يكون قد صعب عليهم فهمه. ومنذ العهد الأيوبى أصبح منصب المعيد مرموقا، وقل أن خلت منه مدرسة من المدارس التى أنشئت فى ذلك العصر، فقد عين صلاح الدين معيدين بالمدرسة الناصرية، كما عين الصالح نجم الدين معيدين اثنين لكل واحد من المدرسين الأربعة فى مدرسته، واعتمد التدريس عادة فى ذلك العصر على الإلقاء والتلقين والإملاء ، وربما دارت مناقشات علمية بين المدرس وطلابه.

والمعروف أن المدارس ومعاهد التعليم العالى لابد لها من مكتبات ضخمة يرجع إليها المدرسون والطلاب، ويعتمدون عليها فى التحصيل والاستزادة، لذلك عنى الأيوبيون عناية كبيرة بالمكتبات، فنسمع عن نور الدين محمود أنه خصص لمدرسته فى دمشق كتبا كثيرة ليرجع إليها طلاب العلم.

وقد استمرت هذه النهضة فى عصر المماليك على الرغم من أصولهم غير العربية ، وخير ما يدل على ازدهار الحياة العلمية فى عصر المماليك، هو عصر الثروة العلمية التى وصلتنا من ذلك العصر بالذات. وما زالت دور الكتب فى جميع أنحاء العالم مشحونة بمئات المخطوطات التى ترجع إلى عصر سلاطين المماليك

بمصر، والتى تناولت معظم ألوان المعرفة : الأدب والتاريخ والجغرافيا والعلوم الدينية والطب والفلاحة والأدب والمعارف العامة.. وغيرها.

ففى الأدب عرف عن سلاطين المماليك تقريبهم الأدباء، وقد اشتهر من شعراء مصر فى ذلك العصر البوصيرى المصرى صاحب البردة وتُعرف باسم «الكواكب الدرية» فى مدح خير البرية، وهى فى ٦٢ بيتا، وقد توفى سنة ٦٩٥هـ. وتوفى فى هذه السنة سراج الدين الوراق وكان شاعرا كثير النظم و صحيح المعانى ، عذب التورية ؛ وشهاب الدين العزازى المتوفى سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠م)، وهناك ابن نباته المصرى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٧م) وقد نبغ فى النظم والنثر، ومثله ابن أبى حجلة نزيل القاهرة الذى توفى سنة ٧٧٦هـ (١٣٧٤م) ، ومن شعراء ذلك العصر من يرجع إلى أصل مماليكى مثل : على بن سودون البشغاوى المتوفى سنة ٨٧٨هـ (١٤٧٣م). بل لقد كان السلطان قانصوه الغورى نفسه المتوفى سنة ٩٢٢هـ ٠١٥١٦م) شاعرا، وله ديوان غير منشور.

أما الأدباء الذين اشتغلوا بالنثر فهم عديدون، منهم القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١هـ (١٤١٨م) وله كتب عديدة أهمها موسوعة «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» وشمس الدين النواجى المتوفى سنة ٨٥٩هـ (١٤٥٥م)، وقد نسب إلى نواج إحدى قرى الغربية، وله كثير من الآثار الأدبية.

وفى ذلك العصر كثر الاشتغال باللغة وعلومها، وظهر من علماء اللغة كثيرون، على رأسهم ابن منظور المصرى المتوفى سنة ٧١١هـ/ ١٣١١م) وله كثير من المؤلفات، على رأسها "**لسان العرب**"، المعجم الشهير، كذلك اشتهر من علماء اللغة ابن هشام المصرى المتوفى سنة ٧٦١هـ(١٣٦٠م) ، والدماميني السكندرى المتوفى سنة ٨٢٧هـ (١٤٢٤م).

على أن أبرز العلوم فى عصر سلاطين المماليك كان بحق علم التاريخ، إذ ظهر فيه طائفة كبيرة من المؤرخين تركوا لنا تراثا ضخما، منهم من أصحاب السير ابن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٣م)، وقد كتب كتابا فى سيرة السلطان الظاهر بيبرس ، وآخر فى سيرة الأشرف خليل بن قلاون. وهناك أيضا من كتاب السير ابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤هـ (١٢٣٤م) ، والقسطلانى المتوفى سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م) وغيرهم كثيرون. ولم يقف الأمر عند حد النشاط فى كتابة السير الفردية ، بل ظهر فى عصر المماليك جماعة من المؤرخين وجهوا نشاطهم نحو تأليف كتب الطبقات مثل ابن خلكان صاحب " وفيات الأعيان"، وقد توفى سنة ٦٨١هـ (١٢٨٢م)، والأدفوى المتوفى سنة ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) صاحب كتاب " الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد" ، وابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢هـ (١٤٤٨م)، صاحب كتاب " الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة " وشمس الدين السخاوى المتوفى سنة ٩٥٢هـ (١٤٩٧م) صاحب كتاب " الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع " ، والسبكى صاحب كتاب طبقات الشافعية.

وهناك فريق من مؤرخى ذلك العصر اختاروا أن يؤلفوا كتبا عن بلد معين أو دولة بعينها مثل جمال الدين بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧هـ (١٩٢٨م) صاحب كتاب " مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب" ، وابن دقماق المصرى المتوفى سنة ٨٠٩هـ (١٤٠٦م) صاحب كتاب " نزهة الأنام وكتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار " ، وتقى الدين المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥هـ (١٤٤١م) صاحب كتاب " المواعظ والاعتبار " ، وكتاب " السلوك " وأبو المحاسن يوسف ابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤هـ (١٤٦٩م) وهو من أصل مماليكى ومن كتبه " النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة " ، و" المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي " ..

وغيرهم كثيرون. أما أصحاب التواريخ العامة فلا يقلون عددا، منهم بيبرس المنصورى وهو أحد أمراء المماليك توفى سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٥م) وله كتاب " زبدة الفكر " وبدر الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥هـ (١٤٥١م) وله كتاب " عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان " ، وغيرهما خارج مصر كثيرون.

أما فى علوم الجغرافيا والسياسة والإدارة فقد كتب شرف الدين بن الجيعان سنة ٧٧٧هـ (١٣٧٥م) كتاب" التحفة السنية فى أسماء البلاد المصرية " ، ويشتمل على إحصاءات إدارية وخراجية عن أرض مصر. وكذلك كتب نجم الدين أحمد بن الرمقة المصرى الشافعى- محتسب القاهرة المتوفى سنة ٧١٠هـ كتاب «بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاة الأمور وسائر الرعية » ، وغيرهما كثيرون.

ومما سبق يمكن القول إن مرحلتى الأيوبيين والمماليك هما بحق مرحلتا ازدهار ثقافى وفكرى فى تاريخ مصر الوسيط فى شتى المجالات.

وحتى نتبين أهمية كتاب ابن أبى أصيبعة الذى نحن بصدد دراسته لابد من الإشارة بشكل أكثر تفصيلا إلى دراسة الطب فى هاتين الحقبتين من التاريخ المصرى.

أوضاع تعليم الطب فى عصر ابن أبى أصيبعة إجمالا :

لم تكن المدارس وحدها هى مظهر رقى الحياة الثقافية والعلمية فى عصرى الأيوبيين والمماليك. بل كانت البيمارستانات- كما تسمى أحيانا- إحدى دلائل تلك النهضة وذلك الرقى.

وكانت البيمارستانات(**) قد أنشئت لأول مرة فى عهد أحمد بن طولون فى مصر عام ٢٦١هـ. كما يذكر المقريزى فى خططه (٨) ، وقد أنفق على إنشائه

٦٠,٠٠٠ (ستين ألف دينار) وكان به قسم للمجانين، وحمَّامان : أحدهما للرجال والثانى للنساء. وكان ابن طولون يتفقده فى كل يوم جمعه.

وقد ذكر ابن أبى أصيبعة من أطباء هذه البيمارستان وأساتذته:

- إبراهيم بن عيسى.
- الحسن بن زيرك.
- سعيد بن توفيل.
- طبيب العيون: خلف الطولونى.

كما ذكر الأطباء الذين عملوا فى هذا البيمارستان على عهد الإخشيدين الذين جاءوا بعد الطولونيين والذين أضافوا بدورهم بيمارستاناً جديدا.

وتموج القاهرة بالأطباء منذ عصر المعز أول الخلفاء الفاطميين بمصر، ومن أطبائه موسى بن العازار الجراح اليهودى، ومن أطبائه وأطباء ابنه العزيز أبو عبد الله التميمى المقدسى ، وأحمد بن محمد البلدى ، وأبو سهل كيسان بن عثمان ، وأعين بن أعين، ومنصور بن مقشر. ويخلف العزيز ابنه الحاكم ويتكاثر الأطباء فى عهده من مثل : إسحق بن إبراهيم بن نسطاس ، وماسوية وكان طبيبا وصيدلانيا ، وطبيب العيون أبى القاسم عمار بن على وله " المنتخب فى علاج أمراض العين " . ومن أهم الأطباء حينئذ ابن رضوان المتوفى سنة ٤٥٣هـ، وجعله الحاكم رئيسا على جميع الأطباء، وظل فى هذه الوظيفة نحو خمسين عاما، ودوت شهرته فى العالم العربى مما جعل علماؤه يكاتبونه ويرحل بعضهم إليه لمناظرته فى مسائل الطب، وممن رحل إليه من بغداد طبيبها ابن بطلان ، ويقول ابن أبى أصيبعة موازنا بينهما: «كان ابن بطلان أعذب لفظا ، وأكثر ظرفا ، وأميز فى الأدب وما يتعلق به، وكان ابن رضوان أطب وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها» .

وقد ترجم شرحه لكتاب جالينوس فى الطب إلى اللاتينية، ونشر مرارا شرحه للمقالات الأربع لبطليموس فى علم الهيئة والفلك.

وتنشط صناعة الطب فى مصر بفضل ابن رضوان وتلاميذه، وأيضاً بفضل دار العلم فقد كان الطب يدرس فيها، إذ يذكر المقريزى فى حديثه عنها أن الحاكم أحضر منها فى سنة ٤٠٣هـ جماعة من الأطباء وكذلك من أهل المنطق للمناظرة بين يديه. وقد يكون فى ذلك مما يدل على أن المنطق كان يدرس بها وهو ما يتصل به فى الفلسفة، ومن الأطباء الذين عاصروا ابن رضوان على بن سليمان، وكان فى أيام العزيز والحاكم والظاهر، وكان متقناً للطب والفلسفة والعلوم الرياضية، وله فى الفلسفة والطب كتب مختلفة. وممن خلفوا ابن رضوان تلميذه افرائيم بن الحسن اليهودى، وقد حصل من المستنصر وأبنائه على أموال كثيرة، وكان شغوفا بالكتب الطبية والفلسفية وغيرها، وكانت لديه منها خزانة كبيرة، واشتهر بأنه كان عنده دائما نساخ يكتبون له ما يريد من الكتب، وهو يحملها إلى العراق، وبلغ ذلك الأفضل بن بدر الجمالى فى أيام وزارته، فبعث إليه بالمال الذى اتفق مع العراقى عليه حتى لا تخرج هذه الكتب من مصر. ويقولون أنه حولها إلى مكتبته الخاصة وكانت تشتمل على خمسمائة ألف مجلد. ومن تلاميذ افرائيم سلامة بن رحمون الطبيب ويقول ابن أبى أصيبعة أنه نصب نفسه لتدريس كتب المنطق والفلسفة الطبيعية والهيئة.

ثم جاءت الدولة الأيوبية التى ولد ابن أبى أصيبعة فى عهدها وعاش عمره يخدم ملوكها وأمراءها ، وأرخ فى كتابه لهم ولتعليم الطب فى عهودهم المختلفة.

وكان الأيوبيون يهتمون بالطب والأطباء منذ صلاح الدين. وقد بدأ هذا الاهتمام باتخاذه مارستانا ضخما فى القاهرة ، وفيه يقول ابن جبير: " **مما شاهدناه**

بالقاهرة من مفاخر السلطان صلاح الدين المارستان ، وهو قصر من القصور الرائعة حسنًا واتساعًا " ويذكر أنه عين له قيما وضع لديه خزائن العقاقير. ويقول أنه وضعت فى مقاصر ذلك القصر أَسِرَّة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسوة. وبين يدى القيم خدمة يتكلفون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشيا ويقدمون لهم ما يلزمهم من الأغذية والأدوية. ويذكر أن بالمارستان قسما خاصا بالمرضى من النساء ومعهن من الخدم من يتكفل بحاجاتهن. وقسما خاصا بالمجانين على مقاصيره شبابيك الحديد. ويقول ابن جبير أن بالفسطاط مارستانا آخر على مثال ذلك الرسم بعينه. وطبيعى أن يحتاج المارستانان إلى كثير من الأطباء. ولابد أن نلاحظ أن المارستان فى القاهرة فى تلك الأيام كان دائما مدرسة للطب. كما كان مستشفى. فى تلك الأيام ويكثر الأطباء فى ذلك العصر. وأول من يلقانا منهم الشيخ السديد بن المنصور عبد الله الذى خدم الخلفاء الفاطميين ثم صلاح الدين ، وطالت حياته حتى سنة ٩٢٥ ، وكان رئيساً على سائر المتطببين بمصر حتى وفاته، وعاصرته طائفة من الأطباء اليهود مثل : ابن جميع ، وكان له مجلس لمن يشتغلون عليه بصناعة الطب، ومثل : الموفق ابن شوعه المتوفى سنة ٥٧٩ ، وأبى البيان ابن المدور المتوفى سنة ٥٨٠هـ ، وأبى الناقد الكحال طبيب العيون المتوفى سنة ٥٨٤هـ ، وموسى بن ميمون المتوفى سنة ٦٠١هـ وتكاثر الأطباء المصريون فى عهد صلاح الدين وبعده مثل : أبى البركات بن القضاعى المتوفى سنة ٥٩٨هـ ، وجمال الدين ابن أبى الحوافز القيس ، وقد ولاه السلطان عثمان بن صلاح الدين رياسة الأطباء بعد الشيخ السديد وظل فى هذه الوظيفة حتى عهد الكامل. وكان ابنه فتح الدين أحمد ماهرا فى الرمد وطب العيون. وولى أحيانا رئاسة الأطباء، ومن رؤساء الأطباء لعهد الكامل : نفيس الدين بن الزبير المتوفى

سنة ٦٣٦هـ ، ويقول ابن أبى أصيبعة أن أولاده مقيمون فى القاهرة ومشهورون بصناعة الكحل ، ومتميزون فى علمها وعملها.

ويستمر ابن أبى أصيبعة فى ذكر الأطباء المصريين لعهد الأيوبيين. ويختم تراجمهم بترجمة لابن البيطار المالقى الأندلسى المولد المتوفى سنة ٦٤٦ هـ وقد بارح موطنه فى العشرين من عمره وجاب بلاد المغرب دارسا لما فيها من نباتات. وألقى عصاه بمصر فجعله السلطان الكامل رئيسا على جميع العشابين، وهو بحق إمام النباتيين لزمنه. وقد سافر إلى بلاد الروم والإغريق والشام دارسا لأنواع النبات، وقرأ ما كتبه ديسقور يدرس وغيره من النباتيين. وهو بحق يعد أعظم الصيدلانيين قاطبه قبل العصر الحديث، وله كتابان: كتاب " الجامع فى الأدوية المفرده " وبه أكثر من ١٤٠٠ دواء منها ثلاثمائة لم يتناولها صيدلى قبله. وله فى نفس الموضوع كتاب ثان هو " المغنى فى الأدوية المفرده "، وقد قدم الكتابين للسلطان الصالح نجم الدين أيوب.

واستمرت النهضة فى مجال الطب وتعليمه أيام المماليك الذين اشتهر من ملوكهم الأوائل الظاهر بيبرس الذى خدمه ابن أبى أصيبعة ودعا له فى كتابه بتخليد ملكه.

وما يلبث أن ولى السلطنة بعد بيبرس المنصور قلاون (٧٦٨- ٦٨٩هـ) فينشئ بيمارستانا ضخما يقول فيه ابن تغرى بردى : « **وهذا البيمارستان وأوقافه وما شرطه قلاوون فيه لم يسبقه إلى ذلك أحد قديما ولا حديثا شرقا ولا غربا** » وقد جعله أقساما كبيرة: قسما للمرضى بالحميات، وقسما للرمد ومرضاه، وقسما للجرحى، وقسما لمن به إسهال، وجعل فيه فراشين لخدمة الرجال ، وفراشات لخدمة النساء ، ونصب فيه الأسرة للمرضى وأمدها بكل ما تحتاج إليه من فرش،

وأهم من ذلك كله أنه جعل فيه قاعة لرئيس أطبائه، كى يلقى فيها دروسه على طلاب الطب، وبذلك كان المارستان مستشفى وكلية طب معا، وقد شاهده ابن بطوطه بعد وفاة قلاوون بنحو أربعين عاما سنة ٧٢٧هـ للهجرة فقال : « **أما المارستان عند قبر قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه. وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر**»،ويذكر أن مجباه (نفقاته) كان ألف دينار كل يوم ".

وأنشئت فى عهد قلاوون بجانب كلية الطب التى كانت ملحقة بمارستانه مدرسة للطب سميت المدرسة المهذبية نسبة إلى منشئها الطبيب مهذب الدين محمد بن أبى حليقة المار ذكره فى عهد بيبرس. وكان قد خدمه مع أبيه وأسلم فى أيامه وسمى محمدا ويقول ابن أبى أصيبعة : مولده سنة ٦٢٠هـ وأنه قرأ على أبيه الصناعة الطبية وصور أقسامها الكلية والجزئية، وحصل معانيها العلمية والعملية".. وبلغ من ازدهار دراسة الطب حينئذ أنه كان يدرس فى المساجد الجامعة، إذ اتخذ السلطان لاجين (٦٩٦هـ- ٦٩٧هـ) يعمر جامع ابن طولون. ويرتب فيه دروسا منظمة : للفقه على المذاهب الأربعة ودرسا للحديث النبوى، وبجانب ذلك يرتب فيها درسا للطب. وممن درسوا فيه بعد زمنه فى القرن الثامن الطبيب شمس الدين محمد بن عبد الله ابن عبد الرحمن المصرى المتوفى سنة ٧٧٦هـ.

ويكفى لبيان ازدهار دراسة الطب حينئذ أن تنتج مصر شيخ الأطباء لزمنه علاء الدين على بن أبى الحزم المعروف باسم ابن النفيس العلامة فى فنه الذى لم يكن فى زمنه من يضاهيه فى الطب والعلاج والعلم، كما يقول ابن تغرى بردى،ويكفيه فخراً ما ذكره الدومييلى وغيره من الغربيين من أنه اكتشف لأول مرة الدورة الدموية الثانية، مسجلاً بذلك كشفاً طبياً خطيراً لم يستطع الأطباء منذ جالينوس إلى زمنه اكتشافه، ومن كتبه «**الشامل فى الطب**» ، و«**المهذب فى**

الكحل» ، و" **شرح القانون فى الطب لابن سينا** " . وقد توفى سنة ٦٨٧ هـ بعد أن أوقف داره وأملاكه وجميع ما يتعلق به على مارستان قلاوون الذى كان يعمل به رئيسا لأطبائه، وولى رئاسة الأطباء بعده مهذب الدين بن أبى حليقة، ويسرد السيوطى فى " حسن المحاضرة " أسماء طائفة من الأطباء فى القرن الثامن الهجرى. ومن الأطباء الذين لم يذكرهم محمد بن الأكفانى المتوفى سنة ٧٤٩هـ ويبدو أن تخصصه الأكبر كان فى طب العيون، ومن مصنفاته فى الرمد «**كشف الغين فى أحوال العين**» وله كتاب فى الطب المنزلى سماه «**غيبة اللبيب**» وكتاب فى القصد سماه «**نهاية القصد**» وكتاب فى الأحجار النفسية سماه «**نخب الذخائر**» ومن كتبه:«**أرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد**»(***). وهو مختصر جامع لفنون شتى تبلغ ستين فنا.

وظهر بعده صدقة بن إبراهيم الشاذلى. ويغلب أن يكون تلميذه إذ هو من أطباء النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى المقابل للقرن الرابع عشر الميلادى. ومما يدل على شهرة مصر أيام المماليك فى الطب والأطباء ما يذكره ابن إياس فى كتابه"بدائع الزهور"من أن السلطان بايزيد العثمانى أرسل فى سنة ٧٩٥ هـ رسولا إلى السلطان برقوق يسأله أن يبعث إليه بطبيب مختص بأمراض المفاصل ، فأرسل إليه رئيس الأطباء ابن صغير ومعه أدوية كثيرة لعلاجه، ويظل هذا النشاط الطبى فى مصر حتى نهاية زمن المماليك.

وكانت أهم وظيفة فى البيمارستان وظيفة «الناظر» أو «رئيس الأطباء» الذى كان يصدر بتعيينه مرسوم سلطانى يحدد له فيه مهامه الوظيفة وأهمها :

- تفقد أحوال المرضى والتأكد من تمتع الفقراء بالعلاج المجانى.
- مراقبة الأطباء أثناء عملهم وتفقد انضباطهم.

- مجازاة المخطئ من الأطباء والحفاظ على أخلاقيات المهنة.
- الإشراف على الفنيين والإداريين العاملين بالمستشفى.
- مراقبة نظم التغذية والدواء.

وفيما يلى نثبت صورة أو نموذجاً لهذه المراسيم سجله لنا القلقشندى فى **كتابه «صبح الأعشى»** وهو مرسوم بتعيين ناظر للبيمارستان النورى، الذى أنشأه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى (ت ٥٦٩هـ) [٩] ، يقول :

"**الوظيفة الثامنة- النظر .**

وهذه نسخة توقيع بنظر البيمارستان النورى،كتب بها لمن لقبه " شهاب الدين" وهى: رسم٠٠٠- لا زال يطلع فى سماء المناصب السنية من ذوى الأصالة والكفاية شهابا ويوزع المستحقين بجهات البر شكره إذ اختار لهم من أهل النهضة من ارتدى العفاف جلبابا، ويودع صحائف الأيام ذكره الجميل حين أحيا قربات الملوك السالفين بانتخاب من يجدد لهم بحسن المباشرة ثوابا- أن يحمل «مجلس الأمير» فلان : أعزه الله تعالى فيما هو بيده فى نظر البيمارستان النورى بدمشق المحروسة، على حكم التوقيع الكريم والولاية الشرعية اللذين بيده واستقراره فى ذلك بمقتضاهما استقرارا يبسط فى هذا المنصب يده ولسانه، ويظهر شهاب عد له الذى يحرق الجور شيطانه ويبرز من مباشرته ما عرف جوهرة بحسن الانتقاء وابريزه بحسن الانتقاد، ومن تأثيره ما تبلغ بن الانفس المراد بأوسع مراد ويبدى من تدبيره، ما ينتج تمييز الوقف وتثميره.

فليباشر ذلك على عادة مباشرته الحسنة، وليسلك فيها ما عهد من طريقته المستحسنة، محصلا من المفردات ما يصرفها لمستحقها وقت الحاجة إليها، مثابرا على حسن معالجة المضرور الذى لا تقدر يده من العجز عليها، مواصلا فعل

الخير باستمرار صدقات الواقع ليشاركه فى الأجر والثواب، مستجلبا له من الدعاء ولنا بمشاركته فى الأمر بالعمل بسنته إلى يوم المآب، ضابطا أموال هذه الجهة بتحرير الأصول والمطلق والحساب متقدما إلى الخدام والقومة بحسن الخدمة للعاجز والضعيف، مؤكدا عليهم فى أخذهم بالقول اللين دون الكلام العنيف، ملزما لهم بجودة الخدمة ليلا ونهاراً، مؤاخذا لهم بما يخلون به من ذلك إهمالا وإقصاراً متقدماً إلى أرباب وظائف المعالجة ببذل النصيحة واستدراك الأدواء المقسمة بإتقان الأدوية الصحيحة، وليتفقد الأحوال بنفسه: ليعلم أهل المكان أن وراءهم ما يقابلهم على التقصير، وليبذل فى ذلك جهده فإن الاجتهاد القليل يؤثر الخير الكثير. والوصايا كثيرة وعنده من التأدب بالعلم وحسن المباشرة ما فيه كفايه وفى أخلاقه من جميل المآثر وما حازه فى البداية ما ينفعه فى النهاية، ولكن تقوى الله عز وجل هى السبب الأقوى، والمنهل الذى من ورده يروى، فليجعلها له ذخيره ليوم الميعاد ومعقلا عند الخطوب الشداد، والله تعالى يبلغه من التوفيق الأمل والمراد، بمنه وكرمه والاعتماد... إن شاء الله تعالى".

من هو ابن أبى أصيبعة؟

اسمه: أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجى.

كنيته: أبو العباس .

لقبه: موفق الدين.

شهرته: ابن أبى أصيبعة. وهى نفسها لقب جده.

وجده هو "خليفة بن يونس الخزرجى". وقد غلب لقب ابن أبى أصيبعة" على موفق الدين وصار علما عليه فى حياته على ما يبدو ، وبعد وفاته فى ثنايا كتابات

المؤرخين له أو للتأليف الطبى، أو لكتب الطبقات والتراجم. ويبدو أن التلقيب باسم العائلة كان شائعا فى عصره فقد قال فى ترجمة رشيد الدين أبى حليقة (ص٥٩٦):

«وجماعة أهل الحكيم رشيد الدين أبى حليقة أكثر شهرتهم فى الديار المصرية والشام ببنى شاكر، لشهرة الحكيم أبى شاكر وسمعته الذائعة ، فصار كل من له نسب إليه يعرفون ببنى شاكر وإن لم يكونوا من أولاده..»

والواقع أن المعلومات المتاحة عن حياة ابن أبى أصيبعة يكتنفها غير قليل من الغموض والاضطراب. وليته سار على نهج كثير ممن سبقوه من المؤرخين الذين لم ينسوا التأريخ لأنفسهم ، فساعد ذلك من جاءوا بعدهم حين كتبوا عنهم.

وعلى أية حال، فإن ترجمته لحياة عمه الطبيب رشيد الدين على بن خليفة (ت٦١٦هـ) تضمنت معلومات مفيدة عن جده خليفة (ابن أبى أصيبعة الأول) ووالده الطبيب القاسم بن خليفة (ت٦٤٩هـ) مما سوف نعطيه أولوية فى الاعتماد عليه أكثر مما رواه عنه الآخرون.

فمن هذه الترجمة (****) نستنتج أن جده خليفة كانت له همه فى طب العلوم وكان قد توجه إلى الديار المصرية عندما فتحها «صلاح الدين الأيوبى» وكان جده فى خدمته وخدمة أولاده، ولما رزق الله تعالى خليفة هذا بابنيه : القاسم (والد موفق الدين) الذى ولد سنة ٥٧٥هـ وعلى الذى ولد سنة ٥٧٩هـ اهتم بتعليمهما الطب حتى اشتهرا ومارسا المهنة وبرعا فيها وتوليا تدريس الطب لغيرهما.

ولكن ابن أبى أصيبعة لم يحدد لنا تاريخ مولده مما جعل الاضطراب يسود الروايات المختلفة التى تعرضت لهذا التاريخ على النحو الآتى :

١- ذكرت دائرة المعارف الإسلامية «مادة» ابن أبى أصيبعة أنه ولد سنة ٦٠٠ هـ بدمشق (١٠).

٢- وذكرت فى التعليق على هذه المادة أنه ولد فى حدود سنة ٥٩٥ هـ فى القاهرة [١١] .

٣- ونقل عبد الصبور شاهين التاريخين وحاول- بشكل مضطرب- التوفيق بينهما [١٢] .

٤- وذكر جورجى زيدان أنه ولد سنة ٦٠٠هـ [١٣] بدمشق.

٥- وذكر الزركلى أنه ولد سنة ٥٩٦هـ [١٤] .

٦- وذكر بوركلمان أنه ولد بعد سنة ٥٩٠ هـ بدمشق [١٥] .

٧- وذكر كحالة أنه ولد بدمشق سنة ٥٩٦هـ[١٦].

والذى يطمئن إليه الباحث إزاء هذا الاضطراب هو ما ذهب إليه كارل بروكلمان من أنه ولد بعد عام ٥٩٠ هـ ويكون عمر أبيه آنذاك فوق خمس عشرة سنة. وربما كان التاريخ الذى اتفق عليه كل من الزركلى وكحالة[١٧]. وهو ٥٩٦هـ هو الصواب. وذلك لأن ابن تغزى بردى حين ترجم له فى النجوم الزاهرة[١٨].قال : «مات بصرخة فى جمادى الأولى- سنة ٦٦٨- وقد نيف على سبعين سنة » وابن تغزى بردى (ت٨٧٤هـ) مؤرخ بارزوليس من السهل أن يقع فى خطأ التعبير بـ «نيف على» وهو يعلم أنه ولد سنة ٦٠٠ هـ وبخاصة أنه أشار إليه فى موضع آخر فى كتابه المنهل الصافى[١٩]. حين ذكر أن ابن أبى أصيبعة أرخ للطبيب عز الدين السويدى المولود سنة ٦٠٠ هـ وقال عنه «وكنت أنا وهو فى المكتب».

مآخذ على دائرة المعارف الإسلامية :

أولاً: التعصب الدينى:

يظهر التعصب من تركيز المؤلفين على دور النصارى واليهود فى تعليم الطب لأسرة ابن أبى أصيبعة خلافا للحقيقة، وذلك كما فى الأمثلة التالية :

١/أ : القول بأن الوزير الذى كتب ابن أبى أصيبعة كتابه ليهديه إليه هو أبو الحسن بن غزال السامرى إشارة إلى ديانته اليهودية على مذهب السامرى مخالف للحقيقة إذ قال عنه ابن أبى أصيبعة فى كتابه (ص٧٢٣) أنه كان سامريا وأسلم.

١/ب: القول بإن والده وعمه كانا «يطلبان العلم على الفيلسوف اليهودى الطبيب موسى بن ميمون " فيه مخالفة للحقيقة إذ روى ابن أبى أصيبعة فى ترجمته لعمه رشيد الدين أن عمه وأباه تعلما على يدى جمال الدين أبى الحوافر وأبى الحجاج يوسف الكحال (أشارت إليه الدائرة) اللذين كانا صديقين لجده خليفة.

١/جـ: القول بإنه استفاد من دروس السديد بن أبى البيان الإسرائيلى فى البيمارستان الناصرى بالقاهرة فيه مبالغة وتعصب. إذ كان ابن أبى أصيبعة فى ذلك الوقت طبيبا كبيرا له مرتبة شأنه شأن الإسرائيلى. وجَعْلُه تلميذا له يوحى بأنه كان ما زال فى دور الطلب بدليل قولهم حرفيا (٠٠٠ وعلى هذا النحو استطاع ابن أبى أصيبعة أن يحذق الطب من الناحية العملية).

١/ د : وينطبق هذا التعصب أيضا على قولهم أن ابن أبى أصيبعة كان شغوفا بدروس الطبيب اليهودى عمران بن صدقة. مع أن مقابلته له كانت عارضة ولم تكن تلمذة بالمعنى الذى أرادت الدائرة إبرازه.

ثانياً: عدم الدقة التاريخية:

وتظهر من الأمثلة التالية:

٢/أ : القول بأن موسى بن ميمون اليهودى كان أستاذا لوالد ابن أبى أصيبعة وعمه، مع أن ابن أبى أصيبعة يذكر أنه كان زميلا له فى المعالجة فى البيمارستان الناصرى بالقاهرة عام ٦٣١ هـ أو ٦٣٢هـ (ص ٥٨٣). وعمه توفى ٦١٦هـ.

٢/ب: القول بإن أباه "أبرأ الملك العادل عام ٦٠٦ هـ من رمد شديد فقرَّ به إليه وأصبح كحالا شهيراً ، ففى هذه العبارة أكثر من خطأ :

* فالصحيح أنه أبرأ أحد خدم الملك العادل وليس الملك نفسه ، وهذا الخادم اسمه سليطة (ص٧٣٨).
* وكان ذلك عام ٦٠٩ هـ وليس ٦٠٦ هـ (ص ٧٣٨).
* وكان أبوه مشهورا قبل هذه الحادثة بدليل السماح له بمعالجته بعد إخفاق كل أطباء العيون المرافقين للملك (ص ٧٣٨).

٣/جـ: القول بإن ابن أبى أصيبعة شغل منصبا فى بيمارستان بالقاهرة عام ٦٣٤هـ خطأ لأنه فى تلك السنة سافر إلى (صرخد) بناء على طلب أميرها عز الدين أيدمر. (٢٦٧٩) ، والصواب أنه كان بالقاهرة- كما قال- سنة ٦٣١ أو ٦٣٢هـ، و ٦٣٣هـ وكانت له «جامكية وجراية» أى راتب وحوافز بلغة ذلك العصر.

٢/د : القول بأنه أتقن الدراسة العملية للطب على يدى السديد بن أبى البيان الإسرائيلى. والصواب : أنه تعلم الدراسة العملية للطب على يدى أستاذه الذى يعتز به كثيرا مهذب الدين عبد الرحيم بن على، وأستاذه الآخر رضى الدين الرحبى وهو نفسه أستاذ عمران اليهودى الذى جعلته الدائرة أستاذا لابن أبى أصبيعة لمجرد أنه ذكر أنه حضر معه دروسا عملية- أى بصفته

زميلا- على يدى شيخهما رضى الدين الرحبى (ص٦٧٣) الذى لم يكن يرغب فى تعليم الطب لأهل الذمة.

مآخذ على مقالة عبد الصبور شاهين :

وللباحث على مقالة أستاذه د. عبد الصبور شاهين مآخذ عديدة :

الأول : أنه نقل عن دائرة المعارف نقلا مباشرا مع تغيير طفيف جدا (أحيانا) فى بعض الكلمات ليوحى بأنه يكتب من تلقاء نفسه.

الثانى : متابعته للدائرة فى أخطائها وتعصبها ، فقد ذكر واقعة علاج والده للملك العادل وقد بينا أن هذا مخالف للحقيقة وأنه عالج أحد خدم الملك. وكما أورد ذات التاريخ وهو ٦٠٦ هـ والصواب كما أوضحنا هو ٦٠٩هـ.

الثالث : التحريف فى النقل ، فالدائرة تقول : " وعلى هذا النحو استطاع أن يحذق الطب من ناحيته العملية " ، وشاهين يقول ".. استطاع أن يخدم الطب من الناحية العملية ". والفارق واسع بين يحذق ويخدم.

الرابع : ادعاء ما ليس صحيحا كالقول بإن كتاب ابن أبى أصيبعة منشور فى طبعة فخمة بعناية الدكتور نزار رضا عن دار مكتبة الحياة ببيروت سنة ١٩٦٥م. والصواب أن هذه الطبعة الفخمة المتداولة ليس بها أية إشارة إلى سنة النشر.

الخامس : المجازفة العلمية كقول شاهين : «إن المؤلف صنع كتابه ليخدم به خزانة الوزير (أبى الحسن بن غزال) المولى الصاحب.. الخ» ، ثم إضافته من عنده : " وكان هذا الوزير عالماً عادلاً حكيماً يعطى القدوة من نفسه ويقيم العدل فى رعيته،هذا كلام شاهين، وأما ابن العماد صاحب" شذرات الذهب" فيقول[٢٠]: وكان (يقصد هذا الوزير) ظالما نحسا ماكرا داهية ".

السادس : النقل غير المتثبت ليس فقط عن الدائرة كما رأينا فيما سبق، ولكن أيضا عن على مبارك حيث نقل شاهين عن الخطط التوفيقية أن عدد التراجم فى الكتاب هو ٣٦٨ ترجمة ، وقالت الدائرة أن التراجم ٤٠٠ ترجمة ، وقد قام الباحث باحصاء التراجم فوجدها ٣٩٢ ترجمة .

وعلى أية حال فإن ابن أبى أصيبعة قضى معظم حياته متنقلا بين القاهرة ودمشق ثم عمل فى صرخد[٢١]. مع أميرها عز الدين أيدمر حتى مات بها سنة ٦٦٨هـ حسب إجماع الروايات التى أرخت لوفاته.

دوافع ابن أبى أصيبعة لتأليف كتابه :

كان تأليف الكتب وإهداؤها إلى الوزراء أو الخلفاء والأمراء قديما عادة معروفة ووسيلة من وسائل الكسب المادى بالحصول على المكافآت والكسب الاجتماعى بتولى الوظائف المرموقة كخدمة السلاطين والوزراء ، وما يحققه القرب منهم من وجاهة اجتماعية . كما كان بعض الحكام يشجع العلماء على تأليف الكتب فى مجالات معينة حبا للعلم ورغبة فى نشره. وقد أوضح ابن أبى أصيبعة فى مقدمة كتابه أنه كتبه خصيصا لخزانة الوزير أبى الحسن بن غزال ، ولم يحدد لنا أسباب كتابته إياه ، وإن كانت لن تخرج عن التحليل السابق. وقد سبقه فى هذا المضمار كثير من المؤلفين القدامى كأبى حيان التوحيدى وغيره.

الأهمية التربوية لهذا الكتاب :

إن الأهمية التربوية لهذا الكتاب تنطلق من الاعتبارات التالية :

أولها : أن ابن أبى أصيبعة نفسه كان طبيبا وعلى صلات واسعة بأطباء عصره فتأريخه لهم يكتسب مصداقية تفوق مُعَاصِره القفطى الذى كان شاعرا ووزيرا وقاضيا ، وأرخ للأطباء ، فجاء كتابه مجموعة من الحكايات الأقل مصداقية.

ثانيها : أنه عاش متنقلاً بين مصر والشام فى العصر الأيوبى ، وشهد بداية العصر المملوكى حيث كانت القاهرة ودمشق فى ذلك فى الوقت أكبر حاضرتين إسلامتين فى العالم الإسلامى. وكانتا مهبط العلماء ومحط رجال نابغين فى شتى التخصصات.

ثالثهما : أن ابن أبى أصيبعة ترجم لعدد وافر من الأطباء من الفرس والروم والعرب والمغاربة يقارب الأربعمائة.

رابعهما : أنه يذكر بعد كل ترجمة أسماء الكتب التى ألفها صاحب الترجمة فى الطب وغيره من المعلوم ، وأن ما أثبته من الكتب بلغ من الثقة حدًّا كبيرًا. فهذه الكتب تعطينا فكرة واضحة- كما تقول دائرة المعارف الإسلامية عن هذا الانتاج العلمى العظيم لكثير من هؤلاء العلماء ، وما وصلوا إليه فى بعض الأحيان من المعرفة الشاملة العجيبة. وقد اعتمد الكتابان الموثوق بهما اللذان كتبا عن الطب الإسلامى باللغات الأوربية (وهما كتاب فستنفلد بالألمانية وكتاب لكلرك بالفرنسية) كل الاعتماد على مصنف ابن أبى أصيبعة "**عيون الأنباء**".

تاريخ تعليم الطب
من خلال كتاب ابن أبي أصيبعة
(عيون الأنباء في طبقات الأطباء)

أرَّخ ابن أبى أصيبعة لتعليم الطب فى بلاد مختلفة ، وكان منهجه فى التأريخ يقوم على أساس التراجم المفصلة لأطباء كل بلد مرتبين فى صورة طبقات من الأقدم إلى الأحدث، وتشمل ترجمة كل طبيب نبذه عن حياته وأساتذته وتلاميذه ونوادره ، ويختمها بمؤلفاته الطبية –وغير الطبية أحياناً–.

وقد شملت تراجمه البلاد الآتية :

١– بلاد اليونان.

٢– الأسكندرية.

٣– الجزيرة العربية.

٤– العراق.

٥– فارس .

٦– الهند.

٧– المغرب (بلاد المغرب وتضم الأندلس وشمالى أفريقية).

٨– الشام.

وقد خصص ابن أبى أصيبعة الباب الأول من كتابه لدراسة نشأة علم الطب أو العلوم الطبية إذا أخذنا فى الاعتبار تعريجه على تطور صناعة الدواء ، وما يتصل به من علوم النبات، والبيطرة بعلومها المختلفة.

وقد أشار فى مقدمة حديثه إلى الصعوبات التى تواجه دارس تاريخ تعليم الطب وأوجزها فى ثلاث نقاط هى :

١- قدم العهد بنشأة الطب والعلاج.

٢- عدم وجود المراجع العلمية الموثوق بها.

٣- اختلاف مشارب المؤرخين وتباين معتقداتهم وأطرهم المعرفية والاجتماعية.

وبعد أن يذكر هذه الصعوبات يدخل فى مناقشة فلسفية حول قدم أو حدوث صناعة الطب. ومسألة القدم والحدوث من المسائل الشائكة فى الفكر الفلسفى الإسلامى لارتباطها على نحو ما بالعقيدة الإسلامية وما يتصل بالتوحيد وقدم الخالق. وما فتنة خلق القرآن التى ثارت فى عصر المأمون إلا صورة واضحة للمدى الذى وصل إليه الجدل حول هذه المسألة حين كانت الرقاب تطير لمجرد المخالفة فى الرأى.

وقد أورد ابن أبى أصيبعة آراء الفريقين المتعارضين : القائلين بالقدم- بمعنى أن هذه الصناعة موجودة مع الإنسان إلهامًا منذ وجوده على الأرض- والقائلين بالحدوث- بمعنى أن الناس اكتسبوها بالتجربة والملاحظة-، وأورد ذلك بصورة إجمالية ثم فصله على خمسة أقسام كما أسماها ، وهى :

الأول : أن يكون مصدر المعرفة الطبية الأنبياء والأصفياء ، ويروى عن القائلين بهذا الرأى آثارا من الثقافة الإسلامية واليهودية والصابئة والمجوسية وغيرها.

الثانى : أن يكون مصدر المعرفة الطبية هو الرؤيا الصادقة ، ويروى عن القائلين بهذا الرأى روايات عن جالينوس وأبقراط تؤيد أنهما إلهاما من خلال الرؤى المنامة ببعض أنواع العلاج والدواء.

الثالث : أن يكون مصدر المعرفة الطبية الاتفاق والمصادقة،كما يروى عن أندرو ماخس وأبو لونيوس وغيرهما.

الرابع : أن يكون مصدر المعرفة الطبية ملاحظة سلوك الحيوانات وتقليده.

الخامس : أن يكون مصدر المعرفة الطبية الإلهام عن طريق الفطرة كما هو الحال عند بعض الحيوانات والطيور التى تتصرف بوحى من فطرتها.

ثم يعلق على هذا التقسيم برون أن يحرو لنفسه موقفا واضحا ، فيقول :

وبالجملة فإنه قد يكون من هذا ومما وقع بالتجربة والاتفاق والمصادقة أكثر ما حصلوا من هذه الصناعة. ثم تكاثر ذلك بينهم وعضده القياس بحسب ما شاهدوه وأدتهم إليه فطرتهم، فاجتمع لهم من جميع تلك الأجزاء التى حصلت لهم بهذه الطرق المتفننة المختلفة أشياء كثيرة. ثم أنهم تأملوا تلك الأشياء واستخرجوا عالمها والمناسبات التى بينها، فتحصل لهم من ذلك قوانين كلية ومبادئ منها يبتدأ بالتعلم والتعليم، وإلى ما أدركوه منها أولا ، فعند الكمال يتدرج فى التعليم من الكليات إلى الجزئيات، وعند استنباطها يتدرج من الجزئيات إلى الكليات، وأقول أيضا : وقد أشرنا إلى ذلك من قبل أنه ليس يلزم أن يكون أول هذا مختصا بموضع دون موضع، ولا يفرد به قوم دون آخرين إلا بحسب الأكثر والأقل، وبحسب تنوع المداواة. ولهذا فإن كل قوم هم مصطلحون على أدوية يألفونها ويتداوون بها، وأرى أنهم إنما اختلفوا فى نسبة صناعة الطب إلى قوم بحسب ما قد كان يتجدد عند قوم فينسب إليهم، فإنه قد يمكن أن تكون صناعة الطب فى أمة، أو فى بقعة من الأرض

فتندثر وتبيد بأسباب سماوية أو أرضية، كالطواعين المفنية والقحوط المجلية والحروب المبيدة، والملوك المتغلبة، والسير المخالفة. فإذا انقرضت فى أمة ونشأت فى أمة أخرى، وتطاول الزمان عليها نسى ما تقدم، وصارت الصناعة تنسب إلى الأمة الثانية دون الأولى، ويعتبر أولها بالقياس إليهم فقط، فيقال لها مذ ظهرت كذا وكذا وإنما يعنى فى الحقيقة مذ ظهرت فى هذه الأمة خاصة، وهذا مما لا يبعد. فأنه على ما تواترت به الآثار، وخصوصا ما حكاه جالينوس وغيره، أن أبقراط لما رأى صناعة الطب قد كادت أن تبيد، وأنه قد درست معالمها عن آل اسقليبيوس، الذين أبقراط منهم، تداركها بأن أظهرها وبثها فى الغرباء، وقواها ونشرها وشهرها بأن أثبتها بالكتب، فلهذا يقال أيضاً على ما ذهب إليه كثير من الناس : أن أبقراط أول من وضع صناعة الطب ، وأول من دونها وليس الحق على ما تواترت به الآثار، إلا أنه أول من دونها من آل اسقليبيوس لتعليم كل ما يصلح لتعلمها من الناس كافة، ومثله سلك الأطباء من بعده واستمر إلى الآن. واسقليبيوس الأول هو أول من تكلم فى شيء من الطب على ما سيأتى ذكره.

تعليم الطب فى بلاد اليونان :

نقل ابن أبى أصيبعة عمن سبقوه أن اسقليبيوس [٢٢]هو أول من ذكر من الأطباء فى العالم، وأول من تكلم فى الطب التجريبى بوصفه علما ينتقل عن طريق التعليم.

ويذكر ابن أبى أصيبعة- نقلا عن سابقيه- أن هذا الرجل كان معظَّمًا عند اليونانيين حتى بعد موته، وأنه إمام الطب عندهم وأبو أكثر الفلاسفة القدامى مثل : إقليدس وأفلاطون وأبقراط وأرسطوطاليس، وأن سولون- المشرع اليونانى الشهير- أخوه. كما يذكر أن اسقليبيوس هذا قد تلقى علم الطب على يدى طبيب

مصرى هو أغاطوذيمون، وفى رواية أخرى أنه تلقاه على يدى طبيب مصرى يسمى هرمس.

ونقل ابن أبى أصيبعة عن طبيب مؤرخ سابق عليه هو ثابت بن قره الحرانى أن اسقليبيوس كان له اثنا عشر ألف تلميذ ، وأنه كان يقوم بتعليمهم الطب مشافهة وكان أهله يتوارثون صناعة الطب ، ومع ذلك فإنه ينقل رواية أخرى عن يحيى النحوى أن اسقليبيوس هذا كان له ابنان ماهران فى هذه الصناعة ، وعهد إليهما ألا يعلما الطب إلا لأولادهما وأهل بيته ، وألا تخرج صناعة الطب إلى الغرباء ، بل يعلمها الأباء الأبناء ، ثم أفاض فى ذكر أحوال هذا الطبيب وصفة تمثاله وملابسه وعاداته ، وفسر الرموز التى توجد حول صورة التى كانت مجسمة ومعبرة عن اعتقاداته واعتقادات من اهتموا بالتأريخ له وختم ترجمته له بذكر بعض أقواله.

بعد ذلك عرض ابن أبى أصيبعة للأطباء اليونانيين من نسل هذا الطبيب وهم: غورس، مينس، برمانيدس، أفلاطون الطبيب، وأخيرا اسقليبيوس الثانى الذى انتقلت بعده هذه الصناعة إلى أبقراط الذى يعد أبا الطب فى العالم القديم.

وقد عاش أبقراط خمسا وتسعين سنة[٢٣]. ولما رأى أن ورثة جده السابع اسقليبيوس الأول يقلون، رأى أن ينشر تعليم الطب ويتيحه لسائر الناس مخالفا بذلك وصية جده. وقد نقل أبقراط تعليم الطب نقله كبيرة بخطوات ثلاث هى :

١- السماح بكتابة ما يسمعه المتعلم من أستاذه ، ولم يكن ذلك مسموحًا به من قبل ، فكان التعليم مشافهة فقط .

٢- تأليفه هو نفسه للكتب خوفا على هذا العلم من الانقراض .

٣- وصفه ما يسمى بـ **(عهد أبقراط)** أو ما يمكن تسميته بـ **(ميثاق شرف المهنة)، وفيما يلى نصه كما أورده ابن أبى أصيبعة :**

قَسَمُ أبقراط :

قال أبقراط : " إنى أقسم بالله رب الحياة والموت، وواهب الصحة، وخالق الشفاء وكل علاج. وأقسم باسقليبيوس. وأقسم بأولياء الله من الرجال والنساء جميعا وأشهدهم جميعا على أنى أفى بهذه اليمين وهذا الشرط. وأرى أن المعلم لى هذه الصناعة بمنزلة آبائى، وأواسيه فى معاشى، وإذا احتاج إلى مال واسته وواصلته من مالى.

«وأما الجنس المتناسل منه فأرى أنه مساو لأخوتى، وأعلمهم هذه الصناعة إن احتاجوا إلى تعلمها بغير أجرة ولا شرط. وأشرك أولادى وأولاد المعلم لى والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط أو حلفوا بالناموس الطبى فى الوصايا والعلوم وسائر ما فى الصناعة. وأما غير هؤلاء فلا أفعل به ذلك، وأقصد فى جميع التدابير، بقدر طاقتى، منفعة المرضى».

«وأما الأشياء التى تضر بهم وتدنى منهم بالجور عليهم فأمنع منها بحسب رأيى ولا أعطى إذا طلب منى دواء قتالا، ولا أشير أيضا بمثل هذه المشورة وكذلك أيضا لا أرى أن أدنى من النسوة فزوجة تسقط الجنين. وأحفظ نفسى فى تدبيرى وصناعتى على الزكاة والطهارة، ولا أشق أيضا عمن فى مثانته حجارة، ولكن أترك ذلك إلى من كانت حرفته هذا العمل. وكل المنازل التى أدخلها إنما أدخل إليها لمنفعة المرضى، وأنا بحال خارجه عن كل جور وظلم وفساد إرادى مقصود إليه فى سائر الأشياء، وفى الجماع للنساء والرجال، الأحرار منهم والعبيد. وأما الأشياء التى أعاينها فى أوقات علاج المرضى أو أسمعها، فى غير أوقات علاجهم فى تصرف الناس من الأشياء التى لاينطبق بها خارج فأمسك عنها، وأرى أن أمثالها لا ينطبق به.

فمن أكمل هذه اليمين ، ولم يفسد شيئا كان له أن يكمل تدبيره وصناعته على أفضل الأحوال وأجملها، وأن يحمده جميع الناس فيما يأتى من الزمان دائما، ومن تجاوز ذلك كان بضده".

وقد حدد أبقراط مواصفات طالب الطب على النحو التالى الذى أورده ابن أبى أصيبعة :

«وينبغى لمن أراد تعلم صناعة الطب أن يكون ذا طبيعة جيدة مؤاتية وحرص شديد ورغبة تامة، وأفضل ذلك كله الطبيعة لأنها إذا كانت مؤاتية فينبغى أن يقبل على التعليم ولا يضجر لينطبع فى فكره ويثمره ثمارا حسنه، مثل ما يرى فى نبات الأرض، أما الطبيعة فمثل التربية، وأما منفعة التعليم فمثل الزرع، وأما تربية التعليم فمثل وقوع البزر فى الأرض الجيدة . فمتى قدمت العناية فى صناعة الطب بما ذكرنا، ثم صاروا إلى المدن لم يكونوا أطباء بالاسم بل بالفعل . والعلم بالطب كنز جيد وذخيرة فاخرة لمن علمه، مملوء سرورا، سرا وجهرا، والجهل به لمن انتحله صناعة سوء، وذخيرة رديه، عديم السرور، دائم الجزع والتهور. والجزع دليل على الضعف، والتهور دليل على قلة الخبرة بالصناعة. وينبغى أن يكون المتعلم للطب فى جنسه حرا، وفى طبعه جيدا، حديث السن، معتدل القامة متناسب الأعضاء، جيد الفهم، حسن الحديث، صحيح الرأى عند المشورة، عفيفا شجاعا غير محب للفضة، مالكا لنفسه عند الغضب ولا يكون تاركا له فى الغاية،ولا يكون بليدا.

وينبغى أن يكون مشاركا للعليل مشفقا عليه، حافظا للأسرار، لأن كثيرا من المرضى يوقفونا على أمراض بهم لا يحبون أن يقف عليها غيرهم.

وينبغى أن يكون محتملا للشتيمة، لأن قوما من المبرسمين (المصابون بالبرسام وهو الهذيانى) وأصحاب الوسواس السوداوى يقابلونا بذلك، وينبغى لنا أن نحتملهم عليه ونعلم أنه ليس منهم، وأن السبب فيه المرض الخارج عن الطبيعة.

وينبغى أن يكون حلق رأسه معتدلا مستويا، لا يحلقه ولا يدعه كالجمه ولا يستقصى قص أظافير يديه، ولا يتركها تعلو على أطراف أصابعه. وينبغى أن تكون ثيابه بيضاء نقية لينة، ولا يكون فى مشيه مستعجلا لأن ذلك دليل على الطيش، ولا متباطئا لأنه يدل على فتور النفس. وإذا دعى إلى المريض فليعقد متربعا ويختبر منه حاله بسكون وتأن، لا بقلق واضطراب فإن هذه الشكل والزى والترتيب عندى أفضل من غيره " .

تعليم الطب فى مصر (الأسكندرية) :

بدأ تعليم الطب فى الأسكندرية على أيدى سبعة من الأطباء النصارى وهم اصطفن جاسيوس، ثاودوسيوس، اكيلاوس، انقيلاوس، فلاذيوس، يحيى النحوى. حيث كانوا يقرأون من كتب جالينوس ستة عشر كتابا على ترتيب سنذكره عند الحديث عن مراحل تعليم الطب فى المبحث القادم.

وقد عمر من هؤلاء السبعة يحيى النحوى الذى أدرك أوائل الإسلام وقيل إنه دخل على عمرو بن العاص فأكرمه واحترم مكانته العلمية. وليحيى هذا لقب آخر هو فيلوبينوس ومعناه بالرومية المجتهد. ولا يقدم لنا ابن أبى أصيبعة معلومات كثيرة عن يحيى هذا سوى أنه كان قويا فى علم النحو فلقب بالنحوى، وأنه كان متمكنا فى المنطق والفلسفة،وكان محبا للعلم حريصا على طلبه وإذاعته بين الناس.

وليحيى النحوى كتب كثيرة معظمها شروح وتفاسير لمؤلفات يونانية عريقة فى الطب. فمثلا من مؤلفاته:

١- تفسير كتاب «النبض الصغير» لجالينوس.

٢- تفسير كتاب «الصناعة الصغير».

٣- تفسير كتاب «المزاج» لجالينوس.

٤- تفسر كتاب«السماع الطبيعى» لارسطو طاليس.

٥- تفسير كتاب «القوى الطبيعية» لجالينوس.

٦- تفسير كتاب «التشريع الصغير» لجالينوس.

٧- تفسير كتاب «العلل والأعراض» لجالينوس.

٨- تفسير كتاب «تعرف علل الأعضاء الباطنة» لجالينوس.

٩- تفسير كتاب «النبض الكبير» لجالينوس.

١٠-تفسير كتاب «الحميات» لجالينوس.

١١-تفسير كتاب «البحران» لجالينوس.

١٢- تفسير كتاب «أيام البحران» لجالينوس.

١٣-تفسير كتاب «حيلة البر» لجالينوس.

١٤-تفسير كتاب «تدمير الاصحاء» لجالينوس.

١٥- تفسير كتاب «منافع الاعضاء» لجالينوس.

١٦- تفسير جوامع كتاب «الترايق»لجالينوس.

١٧- جوامع كتاب «القصد» لجالينوس.

١٨- كتاب «الرد على برقلس»ثمان عشرة مقالة.

١٩- كتاب «فى أن كل جسم متناه فقوته متناهية».

٢٠- كتاب «الرد على أرسطو طاليس» ست مقالات.

٢١- مقالة يرد فيها على نسطورس.

٢٢- كتاب يرد فيه على قوم لا يعرفون. مقالتان.

٢٣- مقالة أخرى يرد فيها على قوم أخر.

٢٤- مقالة فى النبض.

٢٥- نقضه للثمان عشرة مسألة لديد وخس. برقلس الأفلاطونى.

٢٦- شرح كتاب إيساغوجى لفرفوريوس.

ويبدو من كلام ابن أبى أصيبعة أن الكتب الستة عشر التى ألفها هؤلاء الرواد من أطباء الإسكندرية النصارى كانت تتمثل مناهج تعليم الطب فى الإسكندرية فى تلك الفترة المبكرة من تاريخ تعليم الطب. ثم يعقب على ذلك بقوله :

وللإسكندرانيين أيضا جوامع كثيرة فى العلوم الكمية والطب، ولا سيما لكتب جالينوس، وشروحاتها لكتب أبقراط.

فأما الأطباء المذكورون من النصارى وغيرهم ممن كان معاصرا هؤلاء الأطباء الإسكندرانيين، وقريبا من أزمنتهم فمنهم : شمعون الراهب، المعروف بطبيوبه.

وأهرن القس صاحب الكناش، وألف كناشه بالسريانية، ونقله ما سرجيس إلى العربى، وهو ثلاثون مقالة. وزاد ما سرجيس مقالتين.

ويوحنا بن سرابيون، وجميع ما ألف سريانى. وكان والده سرابيون طبيباً من أهل باجرمى. وخرج ولداه طبيبين فاضلين وهما : يوحنا وداوود، وليوحنا بن سرابيون من الكتب: كناشة الكبير، اثنتا عشرة مقالة. كناشة الصغير، وهو المشهور، سبع مقالات. ونقله الحديثى الكاتب لأبى الحسن بن نفيس المتطبب فى سنة ثمان عشرة وثلاثمائة، وهو أحسن عبارة من نقل الحسن بن البهلول الأوانى الطبرهانى ونقله أيضا أبو البشر متى.

ومنهم : انطيلس وبرطلاوس، وسندهشار، والقهلمان، وأبو جريح الراهب، وأوراس وبوينوس البيروتى، وسيورخنا، وفلاعوسوس، وعيسى بن قسطنطين ويكنى أبا موسى،وكان من جملة أفاضل الأطباء، وله من الكتب: كتاب الأدوية المفردة، كتاب فى البواسير وعللها وعلاجها، وأرس، وسرجس الرأس عينى، وهو أول من نقل كتب اليونانيين على ما قيل إلى لغة السريانين، وكان فاضلا وله مصنفات كثيرة فى الطب والفلسفة، واطنوس الأمدى صاحب الكناش المعروف ببقوقونا، وغريغوريوس صاحب الكناش.

وأكثر كتب هؤلاء موجودة ، وقد نقل الرازى كثيرا من كلامهم فى كتابة الكبير الجامع المعروف «بالحاوى».

⋆ الطب فى الجزيرة العربية :

لم تكن الظروف الجغرافية والمناخية وطبيعة العلاقات القبلية السائدة فى جزيرة العرب فى العصور القديمة- وحتى فى العصور الوسطى- تسمح بنمو حضارة مماثلة لتلك التى أتيحت لأقاليم متميزة جغرافيا كالإسكندرية وفارس والعراق والشام وشمال أفريقية حيث المياه والأنهار والحياة الاجتماعية المستقرة.

ولذلك لم ينتشر التعليم فى المجتمعات البدوية فى الجزيرة إلا متأخرا جدا بعد ظهور الإسلام حين ظهرت تجمعات علمية محدودة فى كل من مكة والمدينة والطائف تدرس العلوم الشرعية والعربية ، ومع ذلك فلم تبلغ فيها ما بلغته الحواضر العربية الأخرى كالكوفة والبصرة وبغداد ودمشق والقاهرة وغيرها من المدن المفتوحة والعواصم العلمية.

وفى تأريخه للطب وتعليمه فى الجزيرة العربية اقتصر حديث ابن أبى أصيبعة على نفر من أولئك الأطباء الذين اشتهروا فى عصر النبوة والخلافة الراشدة والدولة الأموية وهم:

١- الحارث بن كلده الثقفى (تعلم الطب فى بلاد فارس وقابل كسرى).

٢- النضر بن الحارث بن كلده الثقفى (ابن خالة النبى ﷺ قتل كافرا فى غزوة بدر).

٣- ابن أبى رمثة التميمى (كان طبيبا وجراحا على عهد النبوة).

٤- عبد الملك بن أبجر الكتانى (كان مقيما فى الإسكندرية ثم انتقل إلى أنطاكية وحران).

٥- ابن أثال (طبيب معاوية بن أبى سفيان- نصرانى دمشقى).

٦- أبو الحكم (نصرانى شامى وكان طبيبا وخبيراً بالأدوية على عهد الأمويين).

٧- حكم الدمشقى (ت سنة ٢١٠هـ وعاش ١٠٥سنة).

٨- عيسى بن حكم الدمشقى (له كتابان أحدهما فى الطب والثانى فى منافع الحيوان).

٩- ثياذوق (طبيب الحجاج بن يوسف الثقفى وله كتابان أحدهما فى الأدوية).

١٠-زينب طبيبة بنى أود (يبدو أنها كانت طبيبة عيون).

وباستثناء إشارته إلى أن بعض هؤلاء سافر فى البلاد وتعلم الطب فى رحلاته لا نجد إشارة ذات قيمة إلى "تعليم" بمعنى الكلمة فى الجزيرة العربية خلال تاريخها الجاهلى والإسلامى والأموى. ولكن بقيام الدولة العباسية انتقل الطب العربى انتقالة مفاجئة بسبب بدء الترجمة فى عهد الأمويين وازدهارها فى عصر العباسيين الذين اتخذوا بغداد عاصمة لدولتهم بدل دمشق عاصمة الأمويين.

وبذلك انتقل مركز الإشعاع الحضارى إلى العراق.

تعليم الطب فى العراق :

قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ، وفى تطور سريع أنشأ العباسيون لأنفسهم دولة عصرية ذات سلطة مركزية قوية. وذات قوة عسكرية ضخمة بعد أن فتحوا فارس وبلاد الروم ووصل نفوذهم إلى الشرق والغرب. وانفتحوا على ثقافات الحضارات غير العربية مثل الحضارات الهندية والفارسية واليونانية والفرعونية.

وقد أتيح لحكام العباسيين أن يتقرب إليهم ذووا الخبرات وأصحاب المواهب من شتى الأصقاع طمعا فى السلطة والجاه والمال. ومن ثم فقد اعتمد العباسيون على أجانب من مجالات عديدة، كان من بينها الطب والحراسة الخاصة والجيش وما نكبه البرامكة الأمثال لتغلغل النفوذ الأجنبى على كافة الأصعدة سياسيا وتنفيذيا وعسكريا.

وقد ترجم ابن أبى أصيبعة للأطباء الذين اشتهروا فى العراق فى عهد الدولة العباسية الأول ومنهم :

- جورويوس بن جبرائيل. الذى كان طبيبا لأبى جعفر المنصور ، وله كتاب فى الطب باللغة السريانية ترجمة حنين بن إسحق فيما بعد.
- بختشوع بن جورجس (له كتاب مختصر فى الطب).
- جبرائيل بن بختشوع بن جورجس كان طبيب الرشيد وخدمه ثلاثا وعشرين سنة وله عدة كتب ذكرها ابن أبى أصيبعة.
- بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع.
- عبد الله بن جبرائيل ولعله من أهم هذه الأسماء التى كانت تمثل بدايات نهضة الطب فى العراق لأن له عدة كتب منها :

- مقالة فى الاختلاف بين الألبان (كتبها سنة ٤٤٧هـ).
- منافسة الأطباء (كتبه سنة ٤٢٣ هـ).
- التواصل إلى حفظ التناسل (كتبه سنة ٤٤١ هـ).
- تذكرة الحاضر وزاد المسافر.
- طبائع الحيوان وخواصها ومنافع أعضائها.

- خصيب.
- عيسى المعروف بأبى قريش (كان صيدلانيا).
- اللجلاج (من أطباء المنصور).
- عبد الله الطيفورى.
- يزيد بن زيد بن يوحنا (من أطباء المأمون).
- عبد مرسى بن زيد (له كتاب "التذكرة" فى الطب).
- سابور بن سهل (كان ملازما لبيمارستان جند بسابور ومعالجة المرض به) . ونال الحظوة عند المتوكل وخلفائه وله كتاب «الاقرباذين» الكبير ويبدو من حديث ابن أبى أصيبعة عنه أنه كان أحد المراجع التى يعول عليها فى البيمارستان فى الصيدلية وله كتب أخرى).

****

مراحل تعليم الطب

فـي الحضارة الإسلامية

تحدث ابن أبى أصيبعة عن تعليم الطب فى مصر دون أن يهتم بتحديد تواريخ دقيقة للظواهر العلمية- التعليمية التى تناولها.

ولكن من الممكن الاستناد إلى بعض إشاراته الجانبية والقول بأنه أرخ لتعليم الطب فى الإسكندرية قبيل وأثناء الفتح الإسلامى لمصر سنة ٢٠ هـ فهو ينقل عن المختار بن الحسن بن بطلان (من أهل بغداد) قوله:

"إن الإسكندرانيين الذين جمعوا كتب جالينوس الستة عشر وفسروها كانوا سبعة وهم: اصطفن، وجاسيوس، وثاودوسيوس، وأكيلاوس، وانقيلاوس، وفلاذيوس، ويحيى النحوى، وكانوا على مذهب المسيح" (ص١٥١).

ثم يقول: "وعمر من هؤلاء الإسكندرانيين يحيى النحوى الإسكندرانى حتى لحق أوائل الإسلام. . وكان فى أول أمر اسقفانى بعض الكنائس بمصر. ولما فتحت مصر على يدى عمرو بن العاص رضى الله عنه دخل إليه وأكرمه ورأى له موضعا. (ص ص ١٥١- ١٥٢).

ويذكر أن الإسكندرانيين كانوا يعلمون الطب من خلال تدريس كتب جالينوس الستة عشر فى سبع مراحل أو مراتب:

المرحلة الأولى:

جعلوها بمنزلة المدخل إلى صناعة الطب ويدرس فيها الطالب أربعة كتب:

أ- كتاب "الفرق" ويتناول المبادئ العامة للعلاج حسب التجربة أو القياس.

ب- كتاب "الصناعة الصغيرة" ويتناول المبادئ العامة للطب النظرى والعملى.

جـ- كتاب "النبض الصغير" ويتناول المبادئ العامة لاستخدام النص كوسيلة للتشخيص.

د- كتاب "أغلوقن"- تسمية اغريقية- يتناول التأنى فى شفاء الأمراض.

المرحلة الثانية:

تدرس فيها أربعة كتب أيضا هى:

أ- كتاب «الاسقطسات» ويصفه ابن أبى أصيبعة بأنه أول كتاب يصلح أن يبدأ به من أراد استكمال صناعة الطب. ويتناول هذا الكتاب الجسم الإنسانى وما يطرأ عليه من تغييرات.

وعلى حد تعبير ابن أبى أصيبعة فأن هذا الكتاب:

"يستفاد منه أن بدن الإنسان وجميع ما يحتاج إليه سريع التغير قابل للاستحالة فمن ذلك اسقطسات البدن القريبة منه وهى الأعضاء المتشابهة الأجزاء- أعنى العظام والأعصاب والشرايين والعروق والاغشية واللحم والشحم وغير ذلك، واسقطسات هذه الأعضاء الأخلاط – أعنى الدم والصفراء والسوداء والبلغم، واستقطسات هذه الأخلاط النار والهواء والماء والأرض، فإن مبدأ التكوين من هذه الأربعة، وأخذ الانحلال إليها. وأن هذه الاسقطسات قابلة للتغيير والاستحالة. وهذا الكتاب هو أول كتاب يصلح أن يبدأ به من أراد استكمال تعليم صناعة الطب".

ب- كتاب «المزاج» ويستفاد منه معرفة أصناف المزاج وبم يتقوم كل واحد منها ولعله يقصد بهذا ما يشيع فى الكتب القديمة من أن لكل إنسان مزاجا خاصا به يدل على طبيعته التى قسموها إلى أربعة أنواع: نارية وترابية وهوائية ومائية.

جـ- كتاب «القوى الطبيعية» ويتناول القوى التى تؤثر فى البلدان وأسباب تأثيرها وأعراضها.

د- كتاب «التشريح الصغير» ويتناول التعريف بأعضاء البدن وخواصها ويشير ابن أبى أصيبعة إلى أن هذه المرحلة من المراحل المبكرة لتعليم الطب تهدف إلى تشويق طالب الطب إلى التعمق فى دراسة بقية مؤلفات جالينوس فيقول: "وهذه الكتب التى فى هذه المرتبة الثانية يستفاد من جميعها الأمور الطبيعية للبدن، أعنى التى قوامه بها. وإذا نظر فيها محب التعليم اشتاق أيضا إلى النظر فى كل ما يتعلق بطبيعة البدن. أما كتاب المناخ فيشير فيه إلى مقالته فى خصب البدن، ومقالته فى الهيئة الفاضلة، ومقالته فى سوء المزاج المختلف وكتابه فى الأدوية المفردة ونحو هذا وأما كتاب القوى الطبيعية فيشوق إلى كتابة فى المنى، وكتابه فى منافع الأعضاء وسائر ما وضعه جالينوس فى القوى والأرواح والأفعال. وأما كتاب التشريح الصغير فيشوق إلى كتابة فى عمل التشريح ونحوه".

المرحلة الثالثة:

ويدرس فيها الطلاب ما يسمى فى كليات الطب المعاصرة باسم(البثالوجيا) أو علم معرفة الأمراض وأعراضها وهى مرحلة متوسطة فى دراسة الطب.

يقول ابن أبى أصيبعة عن هذه المرحلة:

"وأما المرتبة الثالثة: فكتاب واحد فقط فيه ست مقالات، وهو كتاب "العلل والاعراض" وجالينوس وضع مقالات هذا الكتاب متفرقة، وإنما الاسكندرانيون جمعوها وجعلوها فى كتاب واحد. يستفاد منه معرفة الأمراض وأسبابها والأعراض الحادثة عن الأمراض.

وهذا باب عظيم الغناء فى صناعة الطب، على رأى أصحاب القياس وهو اصل عظيم، إذا وقف الإنسان على ما فى هذا الكتاب وفهمه لم يخف عليه شئ من صناعة الطب".

المرحلة الرابعة:

وتغطى الدراسة فيها الأمراض الباطنية على مستويين أولهما تدرس فيه أعراض الأمراض الباطنة من خلال المظاهر البدنية الخارجية أى أن التشخيص هنا يقوم على الملاحظة، والمستوى الثانى تدرس فيه الأمراض الباطنية بدلالة النبض.

يقول ابن أبى أصبيعة: وأما المرتبة الرابعة فكتابان أحدهما:

كتاب "تعرف علل الأعضاء الباطنة" ست مقالات، يستفاد منه تعريف كل علة من العلل التى تحدث فى الأعضاء الباطنة، فإن هذه الأعضاء لا تدرك أمراضها بالعيان لأنها خفية عن الحس. فيحتاج إلى أن يستدل عليها بعلامات تقوم كل واحدة منها، فإذا ظهرت العلامات المقومة تيقن أن العضو الفلانى علة كذا.

مثاله: ذات الجنب: ورم حار يحدث فى الغشاء المستبطن للأضلاع والعلامة التى تقومه ضيق النفس، والوجع الناخس والحمى والسعال. فإن هذه إذا اجتمعت علم أن فى الغشاء المستبطن للأضلاع ورما حارا.

ولم يضع جالينوس كتابا فى تعرف علل الأعضاء الظاهرة إذا كانت هذه العلل تقع تحت العيان فيكتفى فى تعريفها نظرها بين يدى المعلمين عيانا فقط.

والثانى «كتاب النبض الكبير » وهو ينقسم إلى أربعة أجزاء، كل جزء منه أربع مقالات. يستفاد من الجزء الأول منه: معرفة أصناف النبض، وجزئيات كل صنف منها. ومن الثانى: تعريف إدراك كل واحد من أصناف النبض، ومن الثالث:

تعريف أسباب النبض. ومن الرابع: تعريف منافع أصناف النبض. وهذا باب عظيم النفع فى الاستدلال على الأمراض ومعرفة قواها ونسبتها إلى قوة البدن.

المرحلة الخامسة:

وهى مخصصة لدراسة الأمراض المعدية كالحميات وما شابهها. ويدرس فيه الطالب ثلاثة كتب تستوفى أصناف هذه الأمراض وأعراض كل منها ومضاعفاته وطرق علاجه.

يقول ابن أبى أصيبعة: وأما المرتبة الخامسة فثلاثة كتب:

الأول منها: «كتاب الحميات» مقالتان. يستفاد منه معرفة طبائع أصناف الحميات، وما يستدل به على كل صنف منها.

والثانى: «كتاب البحران» ثلاث مقالات يستفاد منه معرفة أوقات المرضى ليعطى فى كل وقت منها ما يوافق فيه، ومعرفة ما يؤول إليه الحال فى كل واحد من الأمراض هل يؤول أمره إلى السلامة أم لا؟ وكيف يكون؟ وبماذا يكون؟.

والثالث: «كتاب أيام البحران» وهو أيضا ثلاث مقالات. يستفاد منه معرفة أوقات البحران، ومعرفة الأيام التى يكون فيها، وأسباب ذلك وعلاماته.

المرحلة السادسة:

وبها تبدأ الدراسة التطبيقية بعد أن يكون الطالب قد أحاط علما بالتشريح والأمراض. وفى هذه المرحلة تبدأ دراسة طرق العلاج وتشبه ما يسمى بعلم دراسة الأدوية فى لغتنا المعاصرة.

يقول ابن أبى أصيبعة:

وأما المرتبة السادسة فكتاب واحد. وهو «كتاب حيلة البر» أربع عشرة مقالة يستفاد منه قوانين العلاج على رأى أصحاب القياس فى كل واحد من الأمراض.

وهذا الكتاب إذا نظر فيه الإنسان اضطره إلى أن ينظر فى كتاب الأدوية المفـردة، وفى كتب جالينوس فى الأدوية المركبة- أعنى قاطاجـانس، والميـامر، وكتـاب المعجونات ونحو هذه الكتب.

المرحلة السابعة:

وعلى الرغم من أن هذه المرحلة هى المرحلة الأخيرة فى دراسة الطب فـإن الاهتمام فيها ينصب على الوقاية كما هو واضح من كلامه. إذ يقول عنها:

وأما المرتبة السابعة فكتاب واحد. وهو «كتاب تدبير الأصحاء» ست مقـالات يستفاد منه حفظ صحة كل واحد من الأبدان وهذا الكتاب إذا نظـر فيـه الإنـسان اضطره إلى أن ينظر فى كتاب الأغذية، وفى كتابه فى جودة الكيمـوس ورداءتـه وفى كتابه فى التدبير الملطف، وفى شرائط الرياضة. مثال ذلك: مـا فـى كتـاب جالينوس فى الرياضة بالكرة الصغيرة ونحو هذا.

رأى ابن أبى أصيبعة فى هذا التقسيم :

إن التدريس فى المراحل السابقة لم يكن يتم علـى شـكل «سـلم تعليمـى» أو دراسة نظامية خاضعة لوقت زمنى محدد. بل كان يتم كما هو معـروف باسـم (المدارس عديمة الصفوف) *Ungnaded Schools* بمعنى أن الطالب ينتقل مـن المرحلة إلى المرحلة التالية فور انتهائه من متطلبات المرحلة الأولى وفقا لقدراته.

وقد علق ابن أبى أصيبعة على هذا التقسيم بقوله:

"فالكتب الستة عشر التى اقتصر الإسكندرانيون على تعليمها تدعو الناظر فيها إلى النظر فى جميع كتب جالينوس التى استكمل بها صناعة الطب، مثال ذلـك: أن النظر فى كتاب «آلة الشم» يتعلق بما فى المرتبة الثانية. والنظر فى كتابـه «فـى علل التنفس» يتعلق أيضا بهذه المرتبة.والنظر فى كتابة «فى سوء التنفس»، وفـى

كتابه «فى منفعة التنفس» وكتابة «فى منفعة النبض» وكتابة «فى حركة الصدر والرئة» وكتابه «فى الصوت» وكتابه «فى الحركات المعتاصة»، وكتابة «فى أدوار الحميات»، وكتابه «فى أوقات الأمراض»، وغير ذلك من كتبه ومقالاته ورسائله. كل واحد منها له تعلق بواحدة من المراتب السبع. أو بأكثر من مرتبة واحدة تدعو الضرورة إلى النظر فيه، فإذا ما فعله الاسكندرانيون فى ذلك حيلة حسنة فى حث المشتغل بها على التبحر فى صناعة الطب وأن تؤديه العناية والاجتهاد إلى النظر فى سائر كتب جالينوس.

قال أبو الفرج ابن هندو فى كتاب «مفتاح الطب»: إن هذه- الكتب التى اتخذها الاسكندرانيون من كتب جالينوس وعملوا لها جوامع وزعموا أنها تغنى عن متون كتب جالينوس، وتكفى كلفة ما فيها من التوابع والفصول". قال أبو الخير بن الخمار وهو استاذ أبى الفرج بن هندو، "أنا أظن أنهم قد قصروا فيما جمعوا من ذلك، لأنهم يعوزهم الكلام فى الأغذية والاهوية والأدوية". قال والترتيب أيضا قصروا فيه، لأن جالينوس بدأ فى التشريح ثم صار إلى القوى والأفعال ثم إلى الاسطقسات".

قال أبو الفرج: "وأنا أرى أن الإسكندرانيين إنما اقتصروا على الكتب الستة عشر، لا من حيث هى كافية فى الطب وحاوية للغرض، بل من حيث افتقرت إلى المعلم واحتاجت إلى المفسر. ولم يكن أن يقف المتعلم على أسرارها والمعانى الغامضة فيها من غير مذاكرة ومطارحة، ومن دون مراجعة ومفاوضة.

وبعد أن أورد ابن أبى أصيبعة الرأيين السابقين لابى الفرج بن هندو [٢٣] وأبى الخير بن الخمار [٢٤] انتقد آراءهما فقال:

"فأما الكتب التى ذكرها الأستاذ أبو الخير بن الخمار فالطبيب مضطر إلى معرفتها وإضافتها إلى الكتب التى عددناها. غير أنه يمكنه من نفسه الوقوف على معانيها واستنباط الأغراض منها بالقوة المستفادة من الستة عشر التى هى القوانين لما سواها والمراقى إلى ما عداها. فإن قلت :فما حجة الإسكندرانيين فى ترتيبهم لهذه الكتب؟ قلنا: إنهم رتبوا بعضها بحسب استحقاقه فى نفسه،بمنزلة كتاب الفرق، فإنه وجب تقديمه لتنتقى به نفس المتعلم من شكوك أصحاب التجربة، والمحتالين ومغالطتهم ويتحقق رأى أصحاب القياس فيقتدى بهم. وبمنزلة الصناعة الصغيرة فإنها لما كانت فيها شرارة من صناعة الطب، كان الأولى أن يتبع بها كتاب الفرق ويجعل مدخلا إلى الطب. ورتبوا بعضها بحسب ما توجيه إضافته إلى غيره بمنزلة الكتاب الصغير فى النبض فإنه جعل تابعا للصناعة الصغيرة، لأن جالينوس ذكر فيها النبض عند ذكره لمزاج القلب ووجب أيضا تقديمه على كتاب جالينوس إلى أغلوقن، لأنه تكلم فى هذا الكتاب فى الحميات والنبض وهو أول شئ يعرف منه أمر الحميات.

على أن الترتيب الذى ذكره الأستاذ أبو الخير أن جالينوس أشار إليه، هو لعمرى الترتيب الصناعى، وذلك أنه يجب على كل ذى صناعة أن يتدرج فى تعليمها من الأظهر إلى الأخفى، ومن الأخير إلى المبدأ والتشريح هو علم البدن وأعضائه، وهذه هو أول ما يظهر لنا من الإنسان، وأن آخر ما تفعله الطبيعة. فإن الطبيعة تأخذ أولا الاسقطسات، ثم تمزجها فيحصل منها الاخلاط، ثم تفعل القوى والأعضاء. فيجب أن يكون طريقنا فى التعليم بالعكس من طريق الطبيعة فى التكوين، ولكنا ندع هذا الاضطرار، ونرضى ترتيب الإسكندرانيين، لأن العلم حاصل على كل حال وخرق اجماع الحكماء معدود من الخرق[٢٥].

أى أن ابن أبى أصيبعة يؤيد التقسيم السكندرى لمراحل الدراسة. ويستنتج من كلامه الآتى:

١- أنه يرى أن على الطالب أن يبذل جهدا فيما لا يحتاج إلى معلم وهو ما نسميه فى عصرنا بـ «التعليم الذاتى» كما وضح من رده على أبى الخير بن الخمار.

٢- أن التهيئة النفسية «التشويق» مسألة ضرورية فى ابتداء التعليم.

٣- إن ابن أبى أصيبعة انتبه إلى مبدأ هام من مبادئ التعليم وهو الانتقال من البسيط إلى المعقد.

المناهج والمقررات الدراسية:(*****)

كان الطب يدرس فى مصادر يونانية وعربية، أما المصادر اليونانية فكتب بقراط وكل منها: كتاب الأجنة، وهو ثلاث مقالات: الأولى فى تكون المنى، والثانية فى تكوين الجنين، والثالثة فى تكون الأعضاء، وكتاب الأخلاط، وكتاب الأمراض الحادة، وهو فى ثلاث مقالات أيضا: الأولى فى تدبير الغذاء، والثانية فى المداواة بالتكميد والفصد والمسهل والثالثة فى التدبير بالخمر، وماء العسل والاستحمام. وكتاب الأمراض الوافدة وتدبيرها وكتاب الأهوية والمياه والبلدان، وهو فى ثلاث مقالات كذلك: الأولى فى تعرف أمزجة البلدان، وما يتولد من الأمراض البلدية، والثانية فى تعرف أمزجة المياه، وفصول السنة وما يتولد منها من الأمراض، والثالثة فى كيفية الحذر مما يولد الأمراض البلدية، وكتاب البثور وفيه خمس وعشرون قضية، وكتاب البول، وكتاب الفصول، الذى ظفر بعدة شروح فيما بعد حيث: شرحه أبو الفرج بن يعقوب الشامى، وأبو الحجاج يوسف الإسرائيلى وعمر بن على بن

البدوخ الدمشقى، وصدقة السامرى، ولم يتمه، وهذب رضى الدين الرحبى شرح ابن الطبيب لكتاب الفصول، وسار على نهج هذه الفصول موسى بن ميمون، فألف فصول موسى، نقل فيها عن الرازى وابن سينا وابن وافد، وابن زهر، وتبحث فى البواسير والرسو وغيرهما، وشرح موسى أيضا فصول بقراط، ولبقراط أيضا كتاب سيلان الدم وكتاب- الكسر والجبر، وهو ثلاث مقالات يتضمن كل ما يحتاج إليه الطبيب من هذا الفن، وكتاب اللحوم، وكتاب تقدمه المعرفة، الذى شرحه عمر بن على بن البدوخ الدمشقى.

وكان لجالينوس ستة عشر كتابا، تدرس فى ذلك العصر، منها كتاب العلل والأعراض الذى علق عليه السديد بن أبى البيان، وشرح بعضه المظفر بن على القرشى المتوفى بدمشق سنة ٦١٢هـ، ومنها كتاب منافع الأعضاء، وكتاب الصناعة الصغيرة، الذى شرحه عدنان بن نصر، وكتاب النبض، وكتاب فى التأنى لشفاء الأمراض، وكتاب المزاج.

وقد اختصر الستة عشر كتابا موسى بن ميمون. وكان لديسقوريدس كتاب يدعى الأدوية، شرحه ابن البيطار.

أما الكتب العربية التى كانت تدرس فى الطب يومئذ، فكتاب المسائل لحنين ابن إسحق. وقد اختصره حينا، وشرحه حينا، وعلق عليه حينا آخر، كثير من أطباء ذلك العصر. ومن أهم ما عنى به يومئذ ما لم ينله كتاب سواء، فاختصر، وشرح ووضعت عليه الحواشى الكثيرة والتعاليق العدة.

كذلك حظى كتاب الحاوى للرازى المتوفى سنة ٣٢١هـ- بكثير من العناية: فاختصر حينا، وعلق عليه حنيا آخر.

وكان الراغب فى دراسة الطب، يحفظ أولا بعض كتبه، مثل «مسائل حنين» و «والفصول لبقراط» ، و «وتقدمة المعرفة» له، ويعرف معناها، ويدرس شروحها، ثم يقرأ كتب العلاج: كبعض كتب الرازى، وبالغ شمس الدين الكلى محمد بن إبراهيم، فحفظ الكتاب الأول من «القانون»، ولعل هذه الصلة التى تربط الطب بكتب اليونان (وكان الطب معدودا من علوم الحكمة ودرس كثير من الأطباء علوم الحكمة على اختلاف ألوانها) هى التى جعلت هذه الطائفة تسمى بالحكماء. ولا تزال هذه التسمية باقية إلى اليوم (******). على أن كثيرا جدا من الأطباء لم يقف عند حد هذه الثقافة الطبية، بل درس غيرها من الثقافات فرأينا من بين الأطباء الفقيه، والأديب، والنحوى والشاعر والمتكلم والأصولى، والمحدث، والمؤرخ، واللغوى، والعالم بالخلاف والفلكى،والمسفر، والمقرئ، والمتكلم والمهندس، والرياضى. ويطول بى الحديث إذا أنا ضربت أمثلة لذلك، وربما كان فيمن سنترجم لهم نماذج لبعض هذه الألوان.

كان طالب الطب يدرس مادته نظريا وعمليا، يدرس الكتب على أساتذته ويلازم مشاهدة المرضى فى البيمارستان، ويعرف أمراضهم، وما يصف الأطباء لهم، وما يكتبونه للمرضى فى تذكرتهم، التى كانت تسمى يومئذ: دستورا.

نخرق تدريس الطب عند المسلمين

أورد ابن أبى أصيبعة فى مواضع متفرقة من كتابة طريقتين من طرق تعليم الطب هما:

١- طريقة التلقين، أو التدريس النظرى وكانت الدروس النظرية التى تدرس بهذه الطريقة تشمل التشريح والكيمياء والفسيولوجيا (وظائف الأعضاء) والباثولوجيا (علم الأمراض) والعقاقير والأدوية.

٢- التدريب العملى، أو الدروس العملية، وكانت تتم فى صورة حلقات من المتعلمين تقف حول المريض ويشرح لهم الأستاذ الحالات الصعبة أو النادرة.

إلا أن ابن أبى أصيبعة تعرض لمسألة «التعليم الذاتى» أو التعليم الفردى كما أشرنا فى السطور السابقة فى تعليقة على مراحل تعليم الطب. ولذا يحسن أن نبسط رأيه هنا قبل الخوض فى تفصيل طريقتى التدريس اللتين تعرض لهما تأسيسا على أن التعلم من حيث الشكل- ذاتيا أو اعتمادا على معلم- أولى بالتناول قبل تفصيل القول فى طريقة التدريس.

وقد تعرض ابن أبى أصيبعة لهذه المسألة بالتفصيل فى ترجمته لابى الحسن على بن رضوان[٢٧] ، فقال:

"**أقول:** وكان ابن رضوان كثير الرد على من كان يعاصره من الأطباء وغيرهم، وكذلك على كثير ممن تقدمه. وكانت عنده سفاهة فى بحثه، وتشنيع على ما يريد مناقشته. وأكثر ذلك يوجد عندما كان يرد على حنين بن اسحق، وعلى أبى الفرج ابن الطيب، وكذلك أيضا على أبى بكر محمد بن زكريا الرازى. ولم يكن لابن رضوان فى صناعة الطب معلم ينسب إليه، وله كتاب فى ذلك يتضمن أن

تحصيل الصناعة من الكتب أوفق من المعلمين. وقد رد عليه ابن بطلان هذا الرأى وغيره فى كتاب مفرد، وذكر فصلا فى العلل التى لأجلها صار المتعلم من أفواه الرجال أفضل من المتعلم من الصحف إذا كان القول واحدا. وأورد عدة علل:

الأولى منها تجرى هكذا: وصول المعانى من النسيب إلى النسيب، خلاف وصولها من غير النسيب إلى النسيب. والنسيب الناطق أفهم للتعليم بالنطق وهو المعلم، وغير النسيب له جماد وهو الكتاب، ويعد الجماد من الناطق مطيل لطريق الفهم، وقرب الناطق من الناطق مقرب للفهم، فالفهم من النسيب،وهو المعلم أقرب وأسهل من غير النسيب، وهو الكتاب.

والثانية، هكذا: النفس العلامة علامة بالفعل، وصورة الفعل عنها يقال له تعليم، والتعليم والتعلم من المضاف. وكلما هو للشيئ بالطبع أخص به مما ليس له بالطبع. والنفس المتعلمة علامة بالقوة، وقبول العلم فيها يقال له تعلم، والمضافان معا بالطبع. فالتعليم من المعلم أخص بالمتعلم من الكتب.

والثالثة، على هذه الصورة: المتعلم إذا استعجم عليه ما يفهمه المعلم من لفظ نقله إلى لفظ آخر والكتاب لا ينقل من لفظ إلى لفظ. فالفهم من المعلم أصلح للمتعلم من الكتاب، وكل ما هو بهذه الصفة فهو فى إيصال العلم أصلح للمتعلم.

والرابعة: العلم موضوعه اللفظ، واللفظ على ثلاثة أضرب: قريب من العقل وهو الذى صاغه العقل مثالا لما عده من المعانى، ومتوسط، وهو المتلفظ به الصوت، وهو مثال لما صاغه العقل، وبعيد، وهو المثبت فى الكتب، وهو مثال ما خرج باللفظ. فالكتاب مثال مثال مثال المعانى التى فى العقل، والمثال الأول لا يقوم مقام المثل لعوز المثل، فما ظنك بمثال مثال مثال المثل. فالمثال الأول لما عند

العقل أقرب فى الفهم من مثال المثال، والمثال الأول هو الفظ، والثانى هو الكتاب وإذا كان الأمر على هذا فالفهم من لفظ المعلم أسهل وأقرب من لفظ الكتاب.

والخامسة:وصول اللفظ الدال على المعنى إلى العقل يكون من جهة حاسة غريبة من اللفظ، وهو البصر،لأن الحاسة النسبية للفظ هو السمع لأنه تصويت والشئ الواصل من النسيب، وهو اللفظ، أقرب من وصوله لمن الغريب، وهو الكتابة فالفهم من المعلم باللفظ أسهل من الكتاب بالخط.

والسادسة هكذا: يوجد فى الكتاب أشياء تصدر عن العلم قد عدمت فى تعليم المعلم وهو التصحيف العارض من اشتباه الحروف مع عدم اللفظ، والغلظ بزوغان البصر وقلة الخبرة بالإعراب، أو عدم وجوده مع الخبرة به، أو فساد الموجود منه واصطلاح الكتاب ما لا يقرأ وقراءة ما لا يكتب، ونحو التعليم ونمط الكلام ومذهب صاحب الكتاب، وسقم النسخ ورداءة النقل، وإدماج القارئ مواضع المقاطع، وخلط مبادئ التعليم، وذكر ألفاظ مصطلح عليها فى تلك الصناعة، وألفاظ يونانية لم يخرجها الناقل من اللغة كالثوروس وهذه كلها معوقة عن العلم. وقد استراح المتعلم عن تكلفها عند قراءته على المعلم. وإذا كان الأمر على هذا فالقراءة على العلماء أفضل وأجدى من قراءة الإنسان لنفسه. وهو ما أردنا بيانه.

قال: وأن آتيك ببيان سابع أظنه مصدقا عندك، وهو ما قاله المفسرون فى الاعتياض عن السالبة البسيطة الموجبة المعدولة، فإنهم مجمعون على هذا الفصل لو لم يسمعه من أرسطوطاليس تليمذه: تاؤفرسطس وأوذيموس، فما فهم قط من كتاب. وإذا كان الأمر على هذا فالفهم من المعلم أفضل من الفهم من الكتاب ويحسب هذا يجب على كل محب للعلم أن لا يقطع بظن فربما خفى الصواب، وإذا

خفى الصواب علم الأشياء علما رديا، فثار عليه بحسب اعتقاده فى الحق أنه محال شكوك يعسر حلتها.

وواضح مما سبق أن ابن أبى أصيبعة يتبنى ما يمكن أن نطلق عليه: «المبادئ العامة للتدريس» وهى تقترب فى معطياتها العامة- من بعض مفاهيم علم النفس التعليمى المعاصر.

ويمكن تلخيصها فيما يلى:

١- أن المعلم ركن أساسى فى عملية التعليم للأسباب التالية:

أ- أنه قد يشرح اللفظ الغامض أو الفكرة الغامضة إذا وردت فى الكتاب.

ب- أن المعلم يعالج ما قد يكون فى الكتاب من أخطاء علمية أو طباعية.

جـ- أن التفاعل الإنسانى بين المعلم والمتعلم يسهل عملية التعليم.

٢- أن الإدراك فى حالة التعليم من الكتاب إدراك بصرى فقط. أما فى حالة التعلم من المعلم فإن أكثر من حاسة تشترك فى عملية التعلم مما يجعل الإدراك أسهل وأشمل.

٣- أن لكل علم أسراره ومصطلحاته الفنية الدقيقة، وهذا يجعل الاعتماد على المعلم ضروريا لضمان التحصيل السليم.

التدريس النظرى :

أن طريقة التدريس النظرى كانت تتم فى خطوات تختلف من أستاذ إلى آخر ولكن النظام العام للطريقة الذى يمكن استنتاجه من مجموع ما ذكره ابن أبى أصيبعة فى تراجمة لمشاهير الأطباء الكبار مثل الرازى[٢٨]، ومهذب الدين بن على [٢٩]. يمكن أن نتصوره على النحو التالى:

- يجلس الطلاب حول الأستاذ فى ثلاثة صفوف دائرية الشكل تمثل ثلاثة مستويات تعليمية آخرها فى الخلف المستجدون فى التعليم، وأوسطهم أولئك الذين قضوا مدة فى التعلم فى الصفوف الخلفية. وفى المقدمة يجاور الأستاذ أنضج المتعلمين وأكثرهم خبرة وأقدمهم جلوسا فى الحلقة أو نستطيع القول بأنهم الذين أوشكوا على التخرج وترك هذه الحلقة والانتقال إلى التدريب العملى.
- وليس من السهل استنتاج قدر الوقت الذى كان يقضيه الطالب فى هذه المرحلة الدراسية فابن أبى اصيبعة لم يشر إلى ذلك. ولكن الواضح من أحاديثه فى مواضع شتى أن الانتقال من صف إلى صف- داخل الحلقة- لم يكن يتم بإرادة الطلاب وإنما كان يتم بناء على رأى الأستاذ بعد أن يستوثق من جدارة الطالب وقدرته.
- وكان الطلاب يقرأون فى هذه الحلقة الكتب التى يختارها الأستاذ لهم سواء أكانت من مؤلفاته أم من مؤلفات غيره.
- وقد يترك الأستاذ طلاب الصف الأدنى إليه (المتميزين والأكثر نضجا) يعتمدون على أنفسهم فى القراءة وينشغل بالشرح لطلاب الصفين التاليين فى الوقت نفسه.
- وتكون مهمة الأستاذ فى جميع الأحوال مهمة إرشادية بالدرجة الأولى فهو لا يقرأ كتابا واحد ويشرحه للجميع كما كان عليه الحال فى تدريس الفقه والنحو والأدب. بل إن مهمة الأستاذ هنا كانت مجرد الشرح أو التوضيح عندما يطلب منه الطلاب ذلك.

- وهناك صورة أخرى لمجلس التعليم النظرى كانت تتم غالبا من خلال التعليم الفردى فيقوم الأستاذ بتعليم كل طالب على حده من كتاب معين أو كما يقول ابن أبى أصيبعة.

«وكان الشيخ مهذب الدين رحمه الله إذا تفرغ من البيمارستان، وافتقد المرضى من أعيان الدولة وأكابرها وغيرهم، يأتى إلى داره ثم يشرع فى القراءة والدرس والمطالعة. ولابد له من ذلك من نسخ. فإذا فرغ منه أذن للجماعة فيدخلون إليه ويأتى قوم بعد قوم من الأطباء والمشتغلين. وكان يقرأ كل واحد منهم درسه، ويبحث معه فيه، ويفهمه إياه بقدر طاقته ويبحث فى ذلك مع المتميزين منهم إن كان الموضع يحتاج إلى فضل بحث، أو فيه أشكال يحتاج إلى تحرير. وكان لا يقرئ أحدا إلا وبيده نسخة من ذلك الكتاب يقرأه ذلك التلميذ وينظر فيه ويقابل به، فإن كان فى نسخة الذى يقرأ غلط أمره بإصلاحه. وكان نسخ الشيخ مهذب الدين التى تقرأ عليه فى غاية الصحة، وكان أكثرها بخطه وكان أبداً لا يفارقه إلى جانبه مع ما يحتاج إليه من الكتب الطبية ومن كتب اللغة كتاب الصحاح للجوهرى، والمجمل لابن فارس(٣٠). وكتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى. فكان إذا فرغت الجماعة من القراءة يعود هو إلى نفسه فيأكل شيئا ثم يشرع بقية نهاره فى الحفظ والدرس"

ومن روايات ابن أبى أصيبعة يتضح أن طريقة التدريس النظرى الدائرية التى أشرنا عليها كانت هى السائدة فى مجلس تعليم الطب بصفة عامة بالشكل الذى أشرنا إليه ففى ترجمته للطبيب العالم ابن خطيب الرى(٣١). يقول:

"وكان إذا جلس للتدريس يكون قريبا منه جماعة من تلاميذه الكبار، ثم زين الدين الكشى والقطب المصرى وشهاب الدين النيسابورى، ثم يليهم بقية التلاميذ وسائر الخلق على قدر مراتبهم، فكان من يتكلم فى شئ من العلم يباحثونه أولئك التلاميذ الكبار، فإن جرى بحث مشكل أو معنى غريب شاركهم الشيخ فيما هم فيه، وتكلم فى ذلك المعنى بما يفوق الوصف".

فنيات التدريس النظرى:

إن الأساليب الفنية للتلقين أو التدريس النظرى التى يمكن استنتاجها من خلال الترجمات المختلفة فى الكتاب تنحصر فى الأنماط التالية:

أ- القراءة على الأستاذ:

حيث يختار الأستاذ للطلبة كتابا معينا من المراجع الطبية التى يراها ملائمة لمستواهم أو لمستوى كل منهم. ويأخذ الطالب فى القراءة من هذا الكتاب على أستاذه فلا يتوقف إلا عندما يغمض عليه المعنى، أو يتدخل الأستاذ بالشرح عندما يرى ضرورة لذلك. ويستمر الوضع على هذه الوتيرة حتى ينتهى الكتاب فينتقل الطالب –أو مجموعة الطلبة– إلى كتاب جديد يمثل مستوى أرقى من السابق.

ب- الإملاء:

وهذه الطريقة كانت أكثر شيوعا فى دروس المحدثين –بتشديد الدال وكسرها– أى أساتذة علم الحديث النبوى. ولكنها شاعت فى تدريس معظم العلوم العربية. وقد استخدمها بعض الأطباء الكبار كالرازى وغيره فى تزويد طلابهم بخبراتهم الشخصية وملاحظاتهم على المؤلفات التى يدرسونها.

جـ- العرض:

ومعناه أن يعيد الطالب قراءة ما أملاه عليه أستاذه بصوت مرتفع على أستاذة للتأكيد من أنه لم يكتب شيئا خطأ أو للتأكد من أنه يفهم ما كتبه سماعا. وهذا النمط من أنماط التفاعل اللفظى بين الأستاذ والتلميذ يدل دلالة واضحة على عناية العلماء العرب بمسألة التعلم الفردى.

د- الشرح:

وهذا النمط هو أكثر فنيات التدريس النظرى شيوعا. ويقوم الأستاذ فيه بالدور الأكبر من خلال تفسير النصوص والعبارات والمعانى الغامضة. أو ضرب الأمثلة على الحالات التى تحتاج إلى توضيح. ويبدو أن الكتب التى كانت تدرس لطلاب الطب باللغات السريانية والإغريقية كانت وراء غلبة هذا النمط على غيره من الانماط لحاجة الطلاب المتجددة إلى اتقان اللغات الأجنبية وأسرارها التعبيرية.

المقررات التى كانت تدرس نظريا:

كانت الدروس النظرية تشمل:

١. الكيمياء والعقاقير:

يقول الرازى (من لم يكن له المام واسع بالكيمياء لا يستطيع أن يكونوا فيلسوفا)، ولا يستغرب هنا استعمال كلمة الفيلسوف لأن العرب كانوا يرون الطب والفلسفة علوما تنبع من معين واحد ويسمونها علوم الحكمة. ومن هنا فقد شاع فى التراث استخدام كلمة «الحكيم» للدلالة على الفيلسوف أو على الطبيب.

"وقد يراد بالحكيم الناظر فى العيون «طبيب العيون خاصة» لا فى الأبدان لأن هذا- أى الناظر فى الأبدان- هو الطبيب"(٣٢).

ويبدو أن الرازى كان على علم بما تسببه العقاقير من مضاعفات أو آثار جانبية فهو يقول "إن قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية" وفى كتاب ابن

أبى أصيبعة تتناثر نماذج كثيرة لأسماء النباتات التى كان الأطباء يعتمدون عليها فى صناعة الأدوية أو فى العلاج بها مباشرة.

٢. التشريح:

وعلى الرغم من أن الفكر الدينى لم يكن أباح تشريح جسم الإنسان فإن علم التشريح كان أحد العلوم الأساسية الممهدة لدراسة الطب. وكان يدرس نظريا من كتاب جالينوس. بالإضافة إلى تجارب العرب فى تشريح عربى.

٣. علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا):

يتضح من استعراض الكتاب أن هذا العلم كان أحد العلوم الضرورية التى تدرس فقد تكلم كثير من الأطباء عن العصاب وعن عصب الحس وعصب الحركة خاصة، وعن الجلد، كما تناولوا دراسة الحواس، وتحدثوا عن طبقات الأذن، الكبد القلب، الخصية العين، ... الخ.

٤. علم الأمراض (الباثولوجيا) :

وكانوا يصفونها (بالخيالية، وقد درسوها من خلال كتاب جالينوس فكانوا يحرصون على تعريف كل مرض ووصف أعراضه وصفا دقيقا بل الشروع فى وصف العلاج. فقد تحدث الرازى عن أعراض بعض أمراض الكبد والكلى والحصبة والجدرى بل إنه تجاوز ذلك إلى ما يعرف اليوم باسم (أمراض المجتمع) أو البيئة حين تحدث عن (صحة المسافر) وكيفية تفادية للأوبئة والأمراض المعدية

وربما أصبح التدقيق فى معرفة الأمراض مزية يتميز بها الطبيب عن غيره وتدل على حنكته. فحين ترجم ابن أبى أصيبعة لموفق الدين يعقوب بن اسقلاب

(طبيب نطرانى كان مقربا من الملك المعظم عيسى بن أبى بكر بن أيوب توفى عام ٦٢٥هـ) قال عنه:

"وكان شديد البحث واستقراء الأعراض بحيث إنه كان إذا افتقد مريضا لا يزال يستقصى منه عرضا عرضا، وما يشكو منه وما يجده من مرضه حالا حالا إلى أن لا يترك عرضا يستدل به على تحقيق المرض إلا ويعتبره فكانت أبدا معالجاته لا مزيد عليها فى الجودة. وكان الملك المعظم يشكر منه هذه الحالة.

٥. علم النبات:

إذا كانت دراسة علوم الحيوان هى أساس دراسة التشريح، فإن دراسة علوم النبات كانت هى أساس علوم الأدوية وكان الأطباء العرب- كما يبدو من كلام ابن أبى أصيبعة- يعطون أهمية للنبات فيدرسونه من حيث آثاره العلاجية وبذلك عرفوا ما سموه بالأدوية المفردة وهم يقصدون بها ما كان يعالج به من النبات مباشرة دون إضافته إلى غيره والأدوية المركبة ويقصدون بها تلك التى يتم استخلاصها من خلط عدة عناصر نباتية أو غير نباتية.

وفى ترجمته لابن البيطار (ت ٦٤٦هـ) الذى يصفه بأنه "أوحد عصره وعلاقة وقته فى معرفة النبات" يذكر ابن أبى أصيبعة أنه خرج معه خارج دمشق لمشاهدة أنواع من النباتات على الطبيعة.

وفى ترجمته لرشيد الدين الصورى (ت٦٣٩هـ) يذكر أنه كان يخرج إلى جبل لبنان ويأخذ معه مصورا ليصور له النباتات التى يدرسها فى مراحل مختلفة من نموها وحين وضع كتاباً فى الأدوية زوده بهذه الصور التى يستدل بها على ما يتوصل إليه من نتائج.

٦. مواد تثقيفية مساعدة:

وأهمها الفقه والنحو ولم يكن كل الأساتذة ملتزمين بتدريسها فى مجالس تعليم الطب ولكن ابن أبى أصيبعة أشار إليها فى تراجم عدد قليل منهم ويبدو أنها كانت مرتبطة باهتمامات الأستاذ الدينية أو اللغوية ولم تكن مقررا أساسيا من متطلبات المهنة.

التدريس العملى:

الواضح من بين ثنايا التراجم المختلفة فى الكتاب أن الدروس العملية كانت تتم ميدانيا حول سرر المرضى فى المستشفيات حيث يشرح الأستاذ الحالات التى يقرر تدريسها حالة بعد أخرى متنقلا بتلاميذه من سرير إلى سرير أو يكلف أحد الطلاب بتشخيص حالة من الحالات ويطلب منه وصف العلاج المناسب للحالة.

ففى ترجمته لأستاذه مهذب الدين بن على يقول:

"ولما أقام الشيخ مهذب الدين بدمشق شرع فى تدريس صناعة الطب، واجتمع إليه خلق كثير من أعيان الأطباء وغيرهم يقرأون عليه، وأقمت أنا بدمشق لأجل القراءة عليه.

وكان الحكيم مهذب الدين يظهر من ملح صناعة الطب ومن غرائب المداواة والتقصى فى المعالجة والإقدام بصفات الأدوية التى تبرئ فى أسرع وقت ما يفوق به أهل زمانه، ويحصل من تأثيرهم شئ كأنه سحر . ومن ذلك أننى رأيته يوما وقد أتى محموم بحمى محرقة وقواريره فى غاية الحدة فاعتبر قوته، ثم أمر بأن يترك له فى قدح بزور من الكافور مقدراً صالحا عينه لهم فى الدستور، وأن يشربه ولا يتناول شيئا غيره، فلما أتينا من الغد وجدنا ذلك المريض والحمى قد انحطت عنه وقارورته ليس فيها شئ من الحدة. ومثل هذا أيضا أنه وصف فى قاعة الممرورين لمن به المرض المسمى مانيا، وهو الجنون السبعى، أن يضاف إلى ماء الشعير فى

وقت إسقائه إياه مقدار متوفر من الأفيون، فصلح ذلك الرجل وزال ما به من تلك الحال. ورأيته يوما فى قاعة المحمومين وقد وقفنا عند مريض، وجست الأطباء نبضه فقالوا عنده ضعف ليعطى مرقة الفروق للتقوية فنظر إليه، وقال: أن كلامه ونظر عينية يقتضى الضعف. ثم جس نبض يده اليمنى وجس الأخرى وقال: جسوا نبض يده اليسرى. فوجدناه قويا. فقال: انظروا نبض يده اليمنى وكيف هو من قريب كوعه قد انفرق العرق الضارب شعبتين، فواحدة بقيت التى تجس والأخرى طلعت فى أعلى الزند وامتدت إلى ناحية الاصابع. فوجدناه حقا. ثم قال: إن من الناس، وهو نادر، من يكون النبض فيه هكذا، ويشتبه على كثير من الأطباء ويعتقدون أن النبض ضعيف، وإنما يكون جسم لتلك الشعبة التى هى نصف العرق فيعتقدون أن النبض ضعيف. وكان فى ذلك الوقت أيضا فى البيمارستان الشيخ رضى الدين الرحبى، وهو من أكبر الأطباء سنا وأعظمهم قدرا وأشهرهم ذكرا فكان يجلس على دكه ويكتب لمن يأتى إلى البيمارستان، ويتوصف منه للمرضى أوراقا يعتمدون عليها ويأخذون بها من البيمارستان الأشربة والأدوية التى يصفها فكنت بعد ما يفرغ الحكيم مهذب الدين والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان، وأنا معهم، أجلس مع الشيخ رضى الدين الرحبى فأعاين كيفية استدلاله على الأمراض، وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم، وأبحث معه فى كثير من الأمراض ومداواتها. ولم يجتمع فى البيمارستان منذ بنى وإلى ما بعده من الزمان من مشايخ الأطباء كما اجتمع فيه فى ذلك الوقت من هؤلاء المشايخ الثلاثة وبقوا كذلك مدة".

ويذكر ابن أبى أصيبعة أن أستاذة مهذب الدين بن على عندما تقدمت به السن لم يتوقف عن تدريس الطب فيقول:

ووصل إلى دمشق إلى ملكها الأشرف فى سنة ست وعشرين وستمائة وهو معه فولاه رياسة الطب. وبقى كذلك مديدة، وجعل له مجلسا لتدريس صناعة الطب ثم زاد به ثقل لسانه حتى بقى إذا حاول الكلام لا يفهم ذلك منه إلا بعسر. وكانت الجماعة تبحث قدامه فإذا استعصى معنى يجيب عنه بأيسر لفظ يدل على كثير من المعنى. وفى أوقات يعسر عليه الكلام فيكتبه فى لوح وتنظره الجماعة. ثم اجتهد فى مداواة نفسه، واستفرغ بدنه بعدة أدوية مسهلة، وكان يتناول كثيرا من الأدوية والمعاجين الحارة ويغتذى بمثلها فعرضت له حمى وتزايدت به حتى ضعفت قوته وتوالت عليه أمراض كثيرة.

مراحل التدريس العملى للطب:

أ- مرحلة الكشف المبدئى:

يقدم لنا ابن أبى أصيبعة صورة لما كان يحدث فى بداية التدريس الميدانى حيث يقف الأستاذ أمام سرير المريض وحوله طلابه ثم تتبع الاجراءات التالية:

١- سؤال المريض عن اسمه وعمره وبلده.

٢- سؤاله عن الآلام التى يشعر بها وتاريخ شعوره بها.

٣- سؤاله عن الأغراض التى صاحبت الشعور بالآلم مسلسلة.

٤- سؤاله عن أفراد عائلته وعما إذا كان أحد منهم قد شعر بالآلام نفسها فى أى وقت من الأوقات.

بهذه الخطوات الأربع يكون الطلاب قد كونوا فكرة عن تاريخ الحالة وأثر الوراثة إن كان لها صلة بالمريض. ويقول الرازى عن هذه المرحلة:

"ينبغى للطبيب ألا يدع مسألة المريض عن كل ما يمكن أن تتولد عنه علته من داخل ومن خارج. ثم يقضى بالأقوى"(٣٣).

ب- مرحلة الفحص:

بعد ذلك يقوم الأستاذ بتوجيه طلابه إلى فحص المريض بعد أن يتداول معهم فى المعلومات التى حصلوا عليها من المريض عبر الخطوات السابقة. وتنقسم مرحلة الفحص عادة إلى مستويين:

الأول: فحص عام شامل: يقول عنها الرازى:

"ابدأ بدراسة حالات المريض وتأثير المرض عليه، وهل يستطيع السير منفردا أم مستندا وعلى أية جهة يستند. ووضع يديه أثناء السير، وهل هما على أعلى البطن أم أسفلها أم على الرأس أم على الصدر وتكلم معه لمعرفة هل هو مالك لقواه العقلية أم فى حالة خمول وهل حالته تنذر بالخطر أم لا. بمجرد القاء نظرة عامة على المريض ويقول الطبيب على بن رضوان عن هذه المرحلة: (٣٤)

"تعرف العيوب هو أن تنظر إلى هيئة الأعضاء والسحنة والمزاج وملمس البشرة وتتفقد أفعال الأعضاء الباطنة والظاهرة، مثل أن تنادى به من بعيد فتعتبر بذلك حال سمعه، وأن تعتبر بصره بنظر الأشياء البعيدة القريبة، ولسان بجودة الكلام، وقوته بشيل الثقل والمسك والضبط والمشى وإنحاء ذلك، مثل أن تنظر مشيه مقبلا ومدبرا، ويؤمر بالاستلقاء على ظهره ممدود اليدين قد نصب رجليه وصفهما، وتعتبر بذلك حال أحشائه وتتعرف حال مزاج قلبه بالنبض وبالاخلاق ومزاج كبده بالبول وحال الاخلاط، وتعتبر عقله بأن يسأل عن أشياء، وفهمه وطاعته بأن يؤمن بأشياء، وأخلاقه إلى ما تميل بأن تعتبر كل واحد منها بما يحركه أو يسكنه. وعلى هذا المثال أجر الحال فى تفقد كل واحد من الأعضاء والأخلاق أما فيما يمكن ظهوره للحمى فلا تقنع فيه حتى تشاهده بالحس وأما فيما يتعرف بالاستدلال فأستدل عليه بالعلامات الخاصة. وأما فيما يتعرف بالمسألة فابحث عنه بالمسألة. حتى

تعتبر كل واحد من العيوب فتعرف هل هو عيب حاضر أو كان أو متوقع، أم الحال حال صحة وسلامة".

الثانى: مرحلة الفحص الدقيق:

وتعتمد هذه المرحلة على خطوات مترابطة وأكثر عمقا من التحليل الظاهرى الذى تم فى المرحلة السابقة مثل:

١- جس نبض المريض.

٢- تحليل المواد الخارجة من جسم المريض كالبول والبراز والصديد والدم.

٣- الفحص الباطنى لمعرفة ما قد يكون بداخل الجسم من أصوات لها دلالة على أمراض معينة.

٤- مراقبة ما يطرأ- أو ما طرأ- على الجلد من تغييرات لها دلالاتها المعروفة.

٥- غسيل المعدة واستخراج ما فيها للتعرف على سلامة الهضم والكبد والطحال.

جـ- مرحلة وصف العلاج:

تعد مرحلة وصف العلاج هى المرحلة الأخيرة فى الدراسة العملية الميدانية وكانت تتم فى صورة الخطوات التالية:

أولاً: يأمر الأستاذ طلابه أن يصف كل منهم ما يراه مناسبا لعلاج الحالة. فإذا أصاب أحدهم أقره وإذا أخطأ طلب من زملائه أن يصححوا له الخطأ.

ثانياً: ربما تشاور الأستاذ مع كبار الأطباء من مرافقين الذين انتهوا من مرحلة الطلب فى وصف العلاج.

ثالثاً: يقوم الأستاذ بوصف ما يستقر عليه رأيه من علاج سواء أكان هذا العلاج أدوية مفردة أو مركبة أو يقرر إجراء مزيد من التحاليل أو يقرر إجراء جراحة. وخلال ذلك يوضح لطلابه أسباب أخطائهم والأسباب التى بنى عليها قراره النهائى.

وفى ترجمة الطبيب رشيد الدين أو حليقة الذى كان معاصرا وصديقا لابن أبى أصيبعة صورة من صور دقة العلاج الذى توصل إليه الأطباء فى ذلك العصر فى مواجهة أمراض حصوة المثانة أو الكلى أو مجرى البول وأمراض الشلل النصفى (الفلج) وفيما يلى نماذج من ترجمته تبين دقته فى التشخيص :

من ذلك أنه مرضت دار من بعض الأدر السلطانية بالعباسية، كان من سيرته معه أن لا يشرك معه طبيبا فى مداواته وفى مداواة من يعز عليه من دوره وأولاده، فباشر مداواة المريضة المذكورة أياما قلائل، ثم حصل له شغل ضرورى الجاه إلى ترك المريضة ، ودخل القاهرة وأقام بها ثمانية عشر يوما. ثم خرج إلى العباسية فوجد المريضة قد تولى مداواتها الأطباء الذين فى الخدمة. فلما حضر وباشر معهم قالوا له: هذه المريضة تموت والمصلحة أن تعلم السلطان بذلك قبل أن يفاجئه أمرها بغته. فقال لهم: إن هذه المريضة عندى ما هى فى مرضة الموت، وإنها تعافى بمشيئة الله تعالى من هذه المرضة. فقال له أحدهم، وهو أكبرهم سنا، وكان الحكيم المذكور شابا: إننى أكبر منك، وقد باشرت من المرضى أكثر منك فتوافقنى على كتابة هذه الرقعة؟ فلم يوافقة. فقالت جماعة الحكماء لابد لنا من المطالعة فقال لهم: إن كان لابد لكم من المطالعة فيكون بأسمائكم من دونى. فكتب إليه الأطباء بموتها فسير إليهم رسولا ومعه نجار ليعمل لها تابوتا تحمل فيه. ولما وصل الرسول والنجار معه إلى الباب، والأطباء جلوس، قال له الحكيم المذكور: ما

هذا النجار؟ قال: يعمل تابوتا لمريضتكم. فقال له: تضعونها فيه وهى فى الحياة؟ فقال الرسول: لا ، لكن بعد موتها. قال له: ترجع هذا النجار وتقول للسلطان عنى خاصة أنها فى هذه المرضة لا تموت. فرجع وأخبره بذلك.

فلما كان الليل استدعاه السلطان بخادم وشمعة وورقة بخطة يقول فيها: ولد الفارس يحضر إلينا، لأنه لم يكن بعد سمى أبا حليقة، وإنما سماه بذلك فيما بعد السلطان الملك الكامل، فإنه كان فى بعض الأيام جالسا مع الأطباء على الباب، فقال السلطان للخادم فى أول مرة أطلب الحكيم، فقال له ياخوند أى الحكماء هو؟ فقال له أبو حليقة. فأشتهر بين الناس بهذا الاسم من ذلك اليوم إلى حيث غطى نعته ونعت عمه الذى كانوا يعرفون به ببنى شاكر. فلما وصل إليه قال: أنت منعت عمل التابوت؟ فقال: نعم. قال: بأى دليل ظهر لك هذا من دن الأطباء كلهم؟ قال له: يامولانا، لمعرفتى مزاجها وبأوقات مرضها على التحرير من دونهم، وليس عليها بأس فى هذه المرضة. فقال له: أمض وطبها واجعل بالك لها. فطب المذكورة وعوفيت. ثم أخرجها السلطان وزوجها وولدت من زوجها أولاد كثيرين.

ومن جملة ما تم أيضا له أنه حكم معرفة نبض الملك الكامل حتى أنه فى بعض الأيام خرج إليه من خلف الستارة مع الأدر المرضى فرأى نبض الجميع ووصف لهم. فلما انتهى إلى نبضه عرفه فقال هذا نبض مولانا السلطان، وهو صحيح بحمد الله، فتعجب منه غاية العجب وزاد تمكنه عنده.

ومن حكاياته معه: أنه أمره بعمل الترياق الفاروق فاشتغل بعمله مدة طويلة ساهرا عليه الليل حتى حقق كل واحد من مفرداته اسما على مسمى بشهادة أئمة الصناعة أبقراط وجالينوس. وفى غضون ذلك حصل للسلطان نزلة على أسنانه فأفصد بسببها وهو يبركه الفيل يتفرج بها، فطلع إلى القلعة وتولى مداواته الأسعد

الطبيب بن أبى الحسن بسبب شغل المذكور بعمل الترياق. فعالجه الأسعد مدة والحال كلما مر اشتد، فشكا ذلك للأسعد فقال له ما بقى قدامى إلا الفصد.

فقال له: أفصد مرة أخرى، ولى عن الفصد ثلاثة أيام، اطلبوا لى أبا حليقة فحضر إليه وشكا له حاله، وأعلمه أن ذلك الطبيب قد أشار عليه بالفصد واستشاره فيه أو فى شرب دواء، فقال: يا مولانا بدنك بحمد الله نقى، والأمر أيسر من هذا كله، فقال له السلطان: إيش تقول لى أيسر، وأنا فى شدة عظيمة من هذا الألم لا أنام الليل، ولا أقر النهار. فقال له: يتسوك مولانا من الترياق الذى حمله المملوك فى البرنية الفضة الصغيرة وترى بإذن الله العجب. وخرج إلى الباب، ولم يشعر إلا بورقة بخط السلطان قد خرجت إليه، وهو يقول فيها يا حكيم، استعملت ما ذكرته فزال جميع ما بى لوقته، وكان ذلك بحضور الأسعد الطبيب الذى كان يعالجه أولا.

فقال له: ونحن ما نصلح لمداواة الملوك، ولا يصلح لمداواتهم إلى أنتم. ثم دخل الملك الكامل إلى خزانته، وبعث إليه منها خلعاً سنية وذهباً متوفراً.

ومن حكاياته: أنه لما طال عليه عمل الترياق الفاروق، لتعذر حضور أدويته الصحيحة من الأفاق، عمل ترياقا مختصرا توجد أدويته فى كل مكان. ونوى انه لا يقصد به قربا من ملك، ولا طلب مال ولا جاها فى الدنيا، ولا يقصد به إلى التقرب إلى الله بنفع خلقة أجمعين، والشفقة على سائر العالمين، وبذله للمرضى فكان يخلص به المفلوجين، ويقوم به الأيدى المتقوسة لوقته وساعته بحيث كان ينشئ فى العصب زيادة فى الحرارة الغريزية وتقوية وإذابة البلغم الذى فيه فيجد المريض الراحة به لوقته، ويسكن وجع القولنج من بعد الاستفراغ، لوقته. وأنه مر على بواب الباب الذى بين السورين بالقاهرة المحروسة، وهو رجل يعرف بعلى، وهو ملقى على ظهره لا يقدر أن ينتصب من جنب إلى جنب، فشكا عليه حاله فأعطاه

منه شربه، وطلع القلعة وباشر المرضى وعاد فى الساعة الثالثة من النهار، فقام المفلوج يعدو فى ركابه يدعو له. فقال له: اقعد، فقال: يا مولانا قد شبعت قعودا خلينى أتملى بنفسى.

ومن حكاياته: أن الملك الكامل كان عنده مؤذن يعرف بأمين الدين جعفر حصل له حصاه سدت مجرى البول، وقاسى من ذلك شدة أشرف فيها على الموت فكتب إلى الملك الكامل وأعلمه بحاله، وطلب منه دستورا يمشى إلى بيته يتداوى فلما حضر إلى بيته أحضر أطباء العصر، فوصف كل مهم له وما وصف فلم ينجح. فاستدعى الحكيم أبا حليقة المذكور، فأعطاه شربة من ذلك الترياق. فبمقدار ما وصلت إلى معدته نفذت قوتها إلى موضع الحصاة ففتتتها وخرجت من الأراقة وهى مصبوغى بالدواء، وخلص لوقته، وخرج لخدمة سلطانه، وأذن آذان الظهر وكان السلطان يومئذ مخيما على جيزة القاهرة، فلما سمع صوته أمر بإحضاره إليه، فلما حضر قال له ما ورقتك؟ بالأمس وصلتنا، وأنت تقول أنك كنت على الموت فأخبرونى أمرك.

فقال: يا مولانا الأمر كان كذلك، لولا لحقنى مملوك مولانا الحكيم أبو حليقة فأعطانى ترياقا خلصت به للوقت والحال. واتفق أن فى ذلك اليوم جلس إنسان ليريق ماء فنهشته أفعى فى ذكره فقتلته، فلما سمع السلطان يخبره رق عليه لأنه كان رؤوفا بالخلق. ثم دخل إلى قلعة القاهرة بات بها، وأصبح من باكر والحكيم المذكور قاعد فى الخدمة عند زمام الدار على الباب. والسلطان قد خرج فوقف واستدعاه إليه، وقال له: يا حكيم أيش هذا الترياق الذى عملته، واشتهر نفعه للناس هذه الشهرة العظيمة، ولم تعلمنى به قط؟ فقال: يا مولانا، المملوك لا يعمل شيئا إلى لمولانا، وما سبب تأخير إعلامه إلا ليجربه المملوك لأنه هو الذى أنشأه فإذا صحت

له تجربته ذكره لمولانا على ثقة منه، وإذا قد صح هذا لمولانا، فقد حصل المقصود فقال له: تمضى وتحضر لى كلما عندك منه. وترك خادما قاعدا على الباب فى انتظاره، ورجع إلى داره كأنه لم يطلع القلعة فى تلك الليلة، ولا خرج من الدار فى تلك الساعة إلا لهذا المهم خاصة. فمضى الحكيم المذكور إلى داره فوجده عنده من ذلك الترياق شيئا يسيرا، لأن الخلق كانت تفنية مما تطلبه منه فمضى إلى أصدقائه الذين كان أهدى لهم منه شيئا، وجمع منه مقدار أحد عشر درهما ووعدهم بأنه يعطيهم عوضا عنه أضعافا، فجعله فى رنية فضية صغيرة وكتب عليه منافعة ومقدار الشربة منه وحملها إلى الخادم المذكور القاعد فى انتظاره فحملها إلى السلطان ولم يزل حافظا لها، فلما آلته أسنانه دلكه عليها فحصل له منه من الراحة ما ذكر.

ومن حكاياته معه: أنه كان قد عرض لبعض جهاته مرض عجز عن مداواته فسيرت تلك الجهة تقول له أنا أعرف أن السلطان لو عرف أن فى الديار المصرية طبيبا خيرا منك لما سلم نفسه وأولاده إليك من دون كافة الأطباء، فأنت ما تؤتى فى مداواتى من قلة معرفة بل من التهاون بأمرى بدليل أنك تمرض فتداوى نفسك فى أيام يسيره وكذلك يمرض أحد أولادك فتداويه فى أيام يسيرة أيضا، وكذلك بقية الجهات التى عندنا ما منهم إلا من تداويه وتنجح مداواتك بأيسر سعى. فقال لها: ما كل الأمراض تقبل المداواه لما مات أحد. فلم تسمع فلم لى أطباء من دمشق، فاستخدم له طبيبين نصرانيين فما حضرا لمداواتها من دمشق اتفق سفر السلطان إلى دمياط، فأستوذن من يمضى معه من الأطباء ومن يترك، فقال الأطباء كلهم يبقون فى خدمة تلك الجهة، والحكيم فلان وحده يكون معى. فأما أولئك الأطباء

فإنهم عالجوها بكل ما يقدرون عليه، وتعبوا فى مداواتها فلم ينجح فانبسط فى ذلك عذر المذكور، وأورد ما ذكر أبقراط فى تقدمه المعرفة.

ثم أنه لما سافر مع السلطان بقى فى خدمته مدة شهر لم يتفق له أن يستدعيه وبعد ذلك بدمياط استدعاه ليلا فحضر بين يديه فوجده محموما، ووجد به أعراضا مختلفة يباين بعضها بعضاً فركب له مشروبا يوافق تلك الأعراض المختلفة، وحمله إليه فى السحر فلم تغب الشمس إلا وقد زال جميع ما كان يشكوه، فحسن ذلك عنده جدا. ولم يزل ملازما لاستعمال ذلك التدبير إلى أن وصل إلى الإسكندرية، واتفق أول يوم من صيام شهر رمضان إن الحكيم المذكور مرض بها، فحضر إليه الأطباء الذين فى الخدمة واستشاروه فيما يحملون إلى السلطان يفطر عليه، فقال لهم: عنده مشروب قد جربه وهو يثنى عليه ويطلبه دائما، فما دام لا يشكوا لكم شيئا متجددا يمنع من استعماله فاحملوه إليه، وإن تجدد لكم شئ فاستعملوا ما تقتضيه المصلحة الحاضرة.

فمضوا ولم يقبلوا منه قصدا منهم أن يجددوا تدبيرا من جهتهم، فلما جددوا ذلك التدبير تغير عليه مزاجه، فاستدعاهم واستدعى نسخة الحكيم المذكور، وأخذ يحاققهم عليها، فكان من جمله ما فيها برز هنديا، وقد حذفوه فقال لهم لماذا حذفتم هذا البرز وهو مقو للكبد منق للعروق، قاطع للعطش؟ فقال أحد الأطباء الذين حضروا: والله ما للمماليك فى حذفه ذنب، إلا أن الأسعد بن أبى الحسن نقل فى بزر الهندبا نقلا شاذا بأنه يضر بالطحال، المملوك والله ما يعرفه، وزعم بإعادة بزر الهندبا إلى مكانة. ثم حاققهم على منفعة دواء من مفردات ذلك المشروب التى حذفوها إلى أن أعادوها وأعاد استعماله دائما ولم يزل منتفعا به شاكراً له.

مبادئ عامة فى التدريس العملى:

من استقراء الترجمات المختلفة فى الكتاب يمكن استنتاج بعض الملاحظات العامة التى يمكن تسميتها بـ «مبادئ التدريس العملى للطلب» باعتبار التدريس العملى يتضمن العلاج كفعالية أساسية من فعاليات التعليم والتعلم :

١- استخدام لغة أجنبية فى التداول بين الأطباء فقد ورد أكثر من مرة فى تراجم مختلفة من الكتاب أن الكتب الطبية وبخاصة كتب أبقراط وجالينوس لم تكن مترجمة. كما تكررت الإشارة إلى أن التفاهم ربما كان يتم باللسان اليونانى أو الإغريقى. ولعل هذا الاتجاه يمكن تفسيره بعدم الرغبة فى إيقاف المريض على أسرار حالته المرضية حتى لا تتدهور بما قد ينتابه من انفعالات.

٢- تدوين البيانات الخاصة بشخص المريض وعمره وتاريخ مرضه وأعراضه وأثر الوراثة- إن وجد- فى مرضه.

٣- مراقبة المريض لعدة أيام وخصوصا بعد وصف الدواء وتسجيل ما يطرأ عليه من تغييرات أولا بأول.

٤- عدم اللجوء إلى الأدوية المركبة(أى المحضرة فى صورة مشروبات أو أقراص أو مراهم أو مساحيق.. الخ) إلا بعد انعدام الأمل فى العلاج بأدوية مفردة (كالاعتماد على نبات معين أثبتت التجارب فعاليته أو وصف طعام معين يفيد فى علاج الحالة).

٥- عدم اللجوء إلى الجراحة إلا عند الضرورة القصوى.

٦- التركيز على الحالة النفسية للمريض ورفع معنوياته أمر أساسى كما ينبغى الاهتمام به.

ومن أقوال الرازى التى يمكن أن تعبر عن بعض المبادئ السابقة ما يلى:

"ينبغى للطبيب أن يوهم المريض أبدا الصحة ويرجيه بها، وإن كانت غير واثق بذلك، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس".

وقال الأطباء: الأميون والمقلدون، والأحداث الذين لا تجربه لهم، ومن قلت عنايته وكثرت شهواته، قتالون.

وقال: ينبغى للطبيب أن لا يدع مساءلة المريض عن كل ما يمكن أن تتولد عنه علته من داخل ومن خارج، ثم يقضى بالأقوى.

وقال: ينبغى للمريض أن يقتصر على واحد ممن يوثق به، من الأطباء فخطؤه فى جنب صوابه يسير جدا.

وقال: من تطيب عند كثيرين من الأطباء يوشك أن يقع فى خطأ كل واحد منهم.

وقال: متى كان اقتصار الطبيب على التجارب دون القياس وقراءة الكتب خذل.

وقال: لا ينبغى أن يوثق بالحسن العناية فى الطب حتى يبلغ الأشد ويجرب.

وقال: ينبغى أن تكون حالة الطبيب معتدلة، لا مقبلا على الدنيا كلية، ولا معرضا عن الآخرة كلية، فيكون بين الرغبة والرهبة.

وقال: بانتقال الكواكب الثابتة فى الطول والعرض تنتقل الأخلاق والمزاجات.

وقال: باختلاف عروض البلدان تختلف المزاجات والأخلاق والعادات وطباع الأدوية والأغذية، حتى يكون ما فى الدرجة الثانية من الأدوية فى الرابعة، وما فى الرابعة فى الثانية.

وقال: إن استطاع الحكيم أن يعالج بالأغذية دون الأدوية فقد وافق السعادة.

وقال: ما اجتمع الأطباء عليه، وشهد عليه القياس، وعضدته التجربة فليكن أمامك وبالضد.

الحواشي :

(١) عبد الصبور شاهين: "ابن أبى أصيبعة. تاريخه وأثره التربوى". في الجزء الثالث من سلسلة "أعلام التربية العربية الإسلامية". (الرياض: مكتب التربية العربى لدول الخليج، ١٩٨٨)، ص ٢٢٧-٢٤٤..

(٢) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء. تحقيق نزار رضا. بيروت: دارت مكتبة الحياة .د.ت (صفحات متفرقة).

(٣) ابن خلكان، وفيات الاعيان وأبناء الزمان، تحقيق احسان عباس، بيروت: دار صادر. د.ت. المجلد السادس، ص٢٦٨.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ط ٦ مجلد ١٣ (بيروت: مكتبة المعارف)

(٥) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المجلد السابع، (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، د.ت)، ص٢٢٩.

(٦) ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، جـ٥، (بيروت، دار الفكر، د.ت)، ص٢٣٢٧.

(٧) جماعة من المستشرقين، دائرة المعارف الإسلامية، م١، ترجمة إبراهيم زكى خورشيد وآخرين (القاهرة: دار الشعب، د.ت)، ص ص ١٩٦-١٩٨.

(*) تم الاعتماد فى كتابة هذه الفقرات على:

أ- المصادر المشار إليها آنفا.

ب- المراجع الحديثة التالية:

١- سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٢م) ص ص ١١٧- ١٢٤.

٢- شوقى ضيف، عصر الدول والامارات (مصر والشام)، سلسلة تاريخ الأدب العربى (٦) (القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٤) (صفحات متفرقة).

٣- أحمد أحمد بدوى، الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام (القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٧٢م) صفحات متفرقة).

٤- أحمد أحمد بدوى، الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية، ط٨ (القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٧٩)، ص٢١.

٥- سعيد إسماعيل على، تاريخ التربية والتعليم فى مصر (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٨٥)، ص ص ٢٤٦-٢٥٦.

(**) المارستان هى تخفيف كلمة "بيمارستان" وهى كلمة فارسية معناها المستشفى مكونة من مقاطع: "بى" = بدون، "مار"= الحياة أو الحيوية، "ستان"= أرض أو مكان. فالمعنى الحرفى للكلمة هو: مكان غير الأصحاء، وكانت تطلق قديماً على أى مستشفى ثم صارت مقصورة على مستشفى المجاذيب.

(٨) المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ٤ (القاهرة: مكتبة النيل، ١٣٢٤هـ)، ص٢٥٧.

(***) حققه الباحث ودرس فكره التربوى من خلاله ونشره عام ١٩٨٩ م فى مجلة كلية التربية بسوهاج.

(٩) القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين، ج١٢ (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٧م)، ص ٨٣، ٨٤.

(****) تشغل هذه الترجمة خمس عشرة صفحة من الكتاب ص ٧٣٦-٧٥٠.

(١٠) ذكرت دائرة المعارف الإسلامية هذا التاريخ (٧٥٩هـ) ولعله خطأ مطبعى.

(١١) عبد الصبور شاهين، مرجع سابق، ص ص ٢٢٧، ٢٢٨.

(١٢) جورجى زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج٣، (بيروت: مكتبة الحياة، ١٩٧٣) ص١٦٧.

(١٣) جورجى زيدان، تاريخ أداب اللغة العربية، جـ٣ (بيروت: مكتبة الحياة، ١٩٨٣) ص ١٦٧.

(١٤) خير الدين الزركلى، الأعلام. ط٧ (بيروت: دار العل للملايين، ١٩٨٦) ص ١٩٧.

(١٥) كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، جـ٦، ط٢، (ترجمة السيد يعقوب بكر (القاهرة: دار ا لمعارف، ١٩٨٣) ص ٤٨.

(١٦) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، حـ٢ (بيروت: دار احياء التراث العربى، د.ت)، ص ٤٧.

(17) لا نستبعد أن يكون كحالة قد اعتمد على الزركلى فى هذا التاريخ لأننا لاحظنا أن هناك عبارات منقولة حرفياً، ومن المعروف أن كتاب الزركلى أسبق وجوداً من كتاب كحالة فالأول بدأ العمل فيه سنة ١٩١٢ م والثانى نشر سنة ١٩٥٧م.

(١٨) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، مرجع سابق، ص ٢٢٩، وقد سماه عبد الصبور شاهين فى مقالته «النجوم الزهراء»وهذا غير صحيح.

(١٩) ابن تغرى بردى، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج١١، تحقيق محمد محمد أمين وسعيد عبد الفتاح عاشور، (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٤)، ص١٤٣، وترجمة السويدى هذا فى كتاب ابن أبى أصيبعة ص٧٥٩.

(٢٠) ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، مرجع سابق، ص ٢٤١.

(٢١) منطقة صغيرة (نيابة تابعة لدمشق)

(٢٢) يقال أنه عاش قبل الطوفان ويكتب بالإنجليزية هكذا Esculape.

(٢٣) يكتب اسمه بالإنجليزية هكذا Hippocrate وقد توفى سنة ٣٥٧ق. م والعرب يسمونه أبا الطب.

(٢٤) هو على بن الحسين بن هندو من أكبر المتميزين فى العلوم الحكيمة والطبية، والفنون الأدبية وهو من طبقة الأطباء الذين ظهروا فى بلاد العجم.

(25) وهو الحسن بن سوار المعروف بأبن الخمار وكان نصرانيا عالما بأصول الطب وفروعه وله مصنفات جليلة. وقد نقل كتبا كثيرة من السريانى إلى العربى. ولد سنة ٣٣١هـ.

(٢٦) الخَرَق (بفتح الخاء والراء): الحمق.

(*****) انظر فى ذلك:

- أحمد أحمد بدوى، الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية، مرجع سابق.
- ابن أبى أصيبعة ، مرجع سابق.
- شوقى ضيف، مرجع سابق.

(******) ما يزال المصريون- فى الريف خاصة- يطلقون لفظ الحكيم على الطبيب.

(٢٧) طبيب مصرى ولد بالجيزة من أسرة فقيرة واعتمد على نفسه- كما قال عن نفسه من سن الرابعة عشرة حتى الثانية والثلاثين وأتقن الطب حتى صار طبيبا مشهورا وله عشرات المؤلفات وقد أصيب بلوثة عقلية فى آخر حياته بسبب أنه كان قد تبنى يتيمه خلال أزمة غلاء طاحنة أرهقت مصر سنة ٤٤٥هـ وكانت الشيخوخة قد طحنته فهربت اليتيمة بعد أن سرقت منه ثروة كان يدخرها لشيخوخته مقدارها عشرون ألف دينار من الذهب. ثم توفى رحمة الله سنة ٤٥٣هـ (عيون الأنباء ص ص ٥٦١- ٥٦٧).

(٢٨) الرازى هو أبو بكر محمد بن زكريا بن يحيى ولد بمدينة الرى ثم انتقل إلى بغداد وهو فى نحو الثلاثين من عمره، وقد تعمق فى دراسة الفلسفة والكيمياء والطب وعرف عنه حبه للفقراء وسعية لنشر الثقافة الصحية بين العامة وعندما طارت شهرته عينة الخليفة المعتضد بالله كبيرا لأطباء مدينة بغداد، فظل فى هذه الوظيفة نحو أربع سنوات ثم عاد إلى الرى وقد ترك تراثا علميا هائلا أهمه كتابه (الحادى) الذى جمع فيه كل ما كان قرأه من علوم السابقين فى الطب. ويبدو من حديث ابن أبى أصيبعة عنه أنه كان يعرف السريانية واليونانية. وقد توفى عام ٣٢٠هـ(ص ص ٤١٤- ٤٢٧).

(٢٩) مهذب الدين عبد الرحيم بن على هو أستاذ ابن أبى أصيبعة أو أحد اساتذته الذين سجل إعجابه بهم. ولد بدمشق واشتهر بها وكان من كبار الأساتذة فى بيمارستان فى دمشق وله صلات طيبة بالملوك المتعاقبين. وله عدة مؤلفات ذكرها ابن أبى أصيبعة. توفى سنة ٦٢٨هـ. (ص ص ٧٢٨- ٧٣٦).

(٣٠) أحمد بن فارس لغوى ونحوى على طريقة الكوفيين ولد فى جهة كبرسف وجيانابان وهما قريتان من رستاق الزهراء وتوفى فى الرى (١٠٠٤) أشهر كتبه "المجمل فى اللغة".

(٣١) هو فخر الدين أبو عبد الله محمد بن العمر بن الحسين الرازى المعروف بابن خطيب الرى نبغ فى علوم كثيرة منها التفسير وتفسيره الشهير "مفاتيح الغيب" من التفاسير المتميزة، كذلك نبغ فى علوم الكلام والفقه والفلسفة واشتهر بقوة حجته وردوده المفحمة على المعتزلة وغيرهم. وتوفى عام ٦٠٦ هـ.
وقد يشار إليه أحيانا بلقب: الفخر الرازى فقط.
(راجع: ابن أبى أصيبعة ص ص ٤٦٢- ٤٧٠).

(٣٢) محمود الطناحى، الموجز فى مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم (القاهرة: مكتبة الخانجى، ١٩٨٥)، ص ٦٤.

(٣٣) ابن أبى أصيبعة،ص ٤٢١.

(٣٤) المرجع نفسه، ص ٥٦٥.